جرماتي

أو

ملـف البـــلاد التي

سوف تعيش بعد الحرب

جرماتـــي

* جرماتي «او ملف البلاد التي سوف تعيش بعد الحرب»
* نبيل سليمان

* الطبعة الثانية 1995
* الناشر:
* دار الحوار للنشر والتوزيع
اللاذقية ص .ب 1018- هاتف 422339
تلكس BOOTH - SY 415086 - سورية

* صدرت الطبعة الأولى عن دار الثقافة الجديدة، القاهرة 1977

* وزارة الاعلام رقم 696 تاريخ 1994/11/15
* موافقة اتحاد الكتاب العرب تاريخ 1995/1/31

نبيل سليمان

جرماتي

أو

ملف البلاد التي

سوف تعيش بعد الحرب

دار الحوار

لست معنياً البتّة بأية مطابقة قد يقوم بها قارئ بين هذه الرواية وبين واقع معين. وأقترح على القارئ أن يبدل كلمة جرماتي، حيثما وردت في الرواية، باسم أي مكان قامت فيه أو احتلته اسرائيل - أو ستحتله - وانسحبت منه - أو ستنسحب. وهكذا تحلّ - مثلاً - غزة أو أريحا أو كلتاهما أو سواهما محل جرماتي. ولو أن كاتباً غيري فعل في طبعةٍ ما لروايته مثل هذا، لفعلت، ووفرت على القارئ عبء هذا الاقتراح الذي قد يشتبه بالاستشراف، وهو ما لم يكن بحسباني ابّان إصدار الرواية الأول عام ١٩٧٧ ، حيث كان (كامب ديفيد) على الأبواب.

نبيل سليمان

الفصل الأول

(1)

فجر نقي كدمعة الديك، سماء رائقة، زرقة مشوبة بالحمرة الباقية في طرف المقلة القصي. الشعاع الأول، الثاني، الثالث، المقلة تتفجر: الشمس: صباح جديد في جرماتي الملفوفة بالصفاء والندى.

انتشر الأولاد مبكرين في الشارع الإسرائيلي. امتدت أسرابهم من جرن النبوعة حتى مربض الدبابة الذي خوى مساء أمس: تسابق الرجال في الوفود إلى ساحة المدرسة. ظهرت عينا زاهي تتقدان، بشير القصاب، ابنه رافع. طالعوا من بعيد العلم السوري، تسمروا ملجومين، تبادلوا النظرات، ضحك بشير، نط رافع، تجاذب زاهي الحزن والفرح، تصلبت عنقه على ألوان العلم الوهاجة، وسمع صوت أحدهم:

– لم يفدنا التبكير!

انطلقوا نحو العلم. سمع صوت آخر ممزوج بالبصاق والقرف:

– رفعوه من خلف ظهرنا!

سأل زاهي مغيظاً:

– متى فعلوا ذلك؟

قال رافع متحسراً:

– لم تغمض عيني بانتظار هذه اللحظة.

زنخر أبوه:

– هذا لا يجوز. العلم علمنا والبلد بلدنا. لا يحق لهم أن يرفعوه في غيابنا.

قال رافع:

- كذبتموني حين قلت لكم: كان معهم ضابط هنا في العشاء. حتماً أحضروه من أجل ذلك.

أطلت من باب الدكان المواجه للمدرسة رقبة طويلة معروقة. صاح بيزو، عم زاهي الوحيد:

- مبارك عليكم يا جماعة الخير. تعالوا كلوا الحلوان.

همس زاهي متأففاً:

- منذ متى يا حاتم الطائي؟

ضحك رافع. عاد صوت بيزو يلعلع، ويداه ترسمان في الفضاء أشكالاً شتى:

- أحضرت خصيصاً لهذا اليوم دملجانة من الحورانة، وسكمبيل جديد..[1]

قاطعه أبو رافع مصطنعاً هيئة الإيمان:

- استفتح بالله يا رجل! من هذه الساعة تأتي على سيرة العرق والورق؟!

التفت زاهي شرقاً نحو السكة. طفلة خلف حمار يحمل الزمبيل[2]. سرح بعينيه بعيداً بين مقام الشيخ ابراهيم وجرن النبوعة. عدد من الصبايا، وعلى كتف كل منهن مقرون[3]. دقق في السكة الوحيدة التي تصل جرماتي بالعالم. لم تهدأ السيارات أمس فوقها غادية رائحة: ضباط الأمم المتحدة، الإسرائيليون المنسحبون، ضابط سوري على ذمة رافع، الجيبات البيضاء، الخضراء، الغبار الذي لم يحل في سماء جرماتي من قبل سوى مرتين: جرماتي تسقط في الحرب الماضية، البلدوزرات تمسح كرم تامر صبح وبيت أبي سمية، تشق الشارع الإسرائيلي. السكة تمرّ بجرن النبوعة على مطل جرماتي. حفرة

---

(1) الدملجانة: وعاء زجاجي ضخم لحفظ العرق. السكمبيل: ورق اللعب.

(2) الزمبيل: وعاء كوتشوكي لنقل الماء، مؤلف من قطعتين كبيرتين.

(3) المقرون: زوج من الجرار أو التنك، لنقل الماء، على كتفي المرأة، أو على ظهر الحمار.

كبيرة ترتقي في زاويتها الشرقية إلى السكة عبر خمس درجات، تكسو أرض الحفرة بلاطة صخرية واحدة ملساء. يتصدر البلاطة النبع المتفجر في فتحة كهف غائر في بطن التلة. تتحدر التلة بقسوة على يمين السكة من النبوعة إلى سنديانات الشيخ ابراهيم الثلاث، تتلو السنديانات فسحة سهلية يسيرة يقتسمها كرم تامر صبح والمقبرة، تضيق السكة بعدئذ كثيراً قبل أن تفضي إلى المئذنة المضلعة المقصوفة منذ يوم القتال الأول: انصبت على المئذنة من كبد السماء ثلاث كتل من جهنم، أتت كل كتلة على قسم من المئذنة. قامت قيامة المصلين الملتجئين إلى بيت الله. أسقط في يد الإمام الشيخ عبد الستار دبرني. كان يعتلي المنبر المخلع عشرين مرة في اليوم، يهزأ بالنائحات، يسخر من الذين ارتجفت أطراف شواربهم. تلفت الشيخ عبد الستار حوله أثر القذيفة الأولى، ألفى عيون الناس منصبة فوقه. عيون تماريه وعيون تستغيث به. جمع أطراف جبته، سوّى عمامته عجلاً، ثم انسل إلى باب المسجد. أحنى ظهره متلصصاً ثم اندفع خارجاً.

المسجد يدير ظهره للساحة الوحيدة. المدرسة والعلم يتوسطان الساحة تقريباً. الشارع الإسرائيلي يبعج زاوية الساحة اليمنى. دكان بيزو يحتل ضلع الزاوية المقابل. غصت الساحة، المدرسة، المسجد، الدكان، بالمتوافدين. طافت الأعناق في سائر الأرجاء. هل عاينت هذه الدنيا من قبل؟ أين الملازم اسحاق؟ أين الرقيب ايليا؟ أين هم جميعاً؟ الصبايا شرعن يتوافدن أيضاً. ثياب براقة نظيفة لم تغادر الصناديق منذ دسوها ثمة. هلّ في البداية عيد الفطر. كان ذلك بعيد وقف القتال بقليل، ثم هلّ الأضحى، وأعلن الملازم اسحاق عيد قيام دولة اسرائيل. لكنّ جرماتي لم تحتشد في الساحة إلا هذا الصباح. تألقت زينتها، علا هرجها، خرج أبو رافع من دكان بيزو لامع العينين. ضحك زاهي وخاطب رافع:

– دخل أبوك الدكان لاعناً العرق، لاعناً عمّي، فخرج، انظر كيف!

صاح أبو رافع بهما من بعيد:

- ادخلوا واشربوا يا عكاريت. إذا لم تسكروا في هذا اليوم فمتى؟
رد زاهي مغتبطاً:
- النهار في أوله. لاحقين نشرب حتى نرتوي.
همس رافع في أذن زاهي:
- عمك يغوي الرحمن.
قال زاهي:
- ليس الشراب وحده. منذ سمع أبوك بالانسحاب، صار يسكر بلا دمعة!
علا صوت أبي رافع في ناحية أخرى من الساحة:
- أين اختفى ديوب؟ أين اختفى الشيخ محب؟ بالله عليكم سامحوا بعضكم في هذا الصباح المبارك. بوسة من شواربكم يا رجال جرماتي.
اقترن حاجبا زاهي الغليظان الفاحمان، وخاطب رافع:
- ليته يسكت!
قال رافع غير آبه:
- كأنه يدعوهم ليغفروا.
تصلبت قسمات زاهي. قبض على كتف رافع، وقال:
- لا تدعه يكمل. فلنأخذه إلى البيت.
تخلص رافع من قبضة زاهي، وقال:
- لا تنغص عليه فرحته.
قال زاهي متضايقاً:
- ما علاقة الفرح بالغفران؟ أعوذ بالله.
جاء صوت رافع حنوناً معجباً:
- قلب أكثر بياضاً من الثلج!
وأردف بعد هنيهة:
- قلوبنا تسع الدنيا يا زاهي، فهل تضيق في يوم كهذا على الـ...

قاطعه زاهي:
- لا تهرف مثله. دع ذلك الآن.
وانسلّ مبتعداً عنهم، غائراً في داخله.

(2)

هو ينادي على القوم ملء صوته الجهوري. يلتفتون إليه جميعاً. تخفت الأصوات رويداً رويداً. يطبق الصمت. يبدو زاهي بالغ الطول. بالغ النحافة. تقلقلت الحجرة التي يعتليها. تمايل قليلاً، هز قبضته اليمنى في وجوههم. صرخ بهم:

- كيف تنوون أن تحكموا اليوم أنفسكم؟

غرغرت حنجرة قريبة من موقعه:

- حكم ماذا؟ عما قليل يعود البرزغل و..

قاطع زاهي الحنجرة باسماً:

- طيب حتى يعود ماذا تفعلون؟

صاح في الجهة المقابلة رجل:

- ابحثوا عن ديوب، عن الشيخ محب، حملناهم طوال شهور الاحتلال، ألا نستطيع الصبر ساعتين أو يومين حتى يعود الآخرون؟

مط رافع رقبته يسار زاهي، أطل على القوم مشيراً إلى الجهة الإسرائيلية من الأفق:

- لعلهما انسحبا مع الجماعة!

ضجت الساحة بالضحك. جهد زاهي في استعادة الهدوء، ثم قال رجل في وسط الحشد المبهم:

- سوف يعمرونها.

مطّ رافع رقبته ثانية، وأطل هاتفاً:

- نحن!
وقهقه. سأل كهل ملتح:
- كيف؟
عادت الحنجرة القريبة من موقع زاهي تغرغر:
- أتكون طامعاً فيها ياابن أخي؟
قال زاهي:
- نعم يا عمي، ستكون لنا .من بقي لجرماتي سوانا؟ السكامنة برحوها منذ دهر. قطع نايف رأس الأفعى فولّوا .بعد السكامنة.طلع علينا الأستاذ قبلان. الأستاذ قبلان صار يرتقي المناصب في الشام. لم يهمه أن يكون له في جرماتي أحد. أين رفاقه بالله؟ أين الشيخ محب؟ تبرأ من كل حزب قبل أن تهدر الدبابة الاسرائيلية هناك. زوج شقيقة بربهان قتل في الحرب. من بقي لجرماتي منهم؟ ماذا قدموا لك يا جرماتي؟ نحن الذين لم نبرحها يا عم. وحده تامر صبح منا مضى. سلوم تعرفون منذ متى هو في لبنان. نايف في السجن. فضل مع الفلسيطينيين. أبو سمية مدفون على التلة. وحدنا لا نبرحها، قد تأتي الضربة مميتة يا جرماتي، لكننا ننهض بك دوماً. إلى من تؤولين اليوم؟ السكامنة؟ الأستاذ؟ نحن؟
يصيح رجل من إحدى نواحي الحشد المبهم:
- ما معنى ذلك كله؟
يعلو نشاز بيزو من باب دكانه:
- تعالوا نرفع الأقواس تعالوا نـ...
يعود الكهل الملتحي، بصوت يشرخه الدخان والعمر:
- هذا ما نقدر عليه حقاً.
يسأل زاهي ملتاعاً:
- وداع أم استقبال؟
إنهم يملصون كلما أوشكت. يقلقك التشتت، تدير عنقك باحثاً

عنهم. إنهم حولك، قريبون، بعيدون، تيأس من مخاطبتهم في هذا الصباح الذي خلت فيه جرماتي من الحكام. تنزل عن الحجرة المتقلقلة، يعتلي رافع الحجرة، يصطخب الهرج، يرفع ذراعيه عالياً، ينزاح الكمان عن الذراعين المبرومين، لا ينصت الرجال، لا ييأس رافع، لا يتكلم، لا يسكت، ينفض القوم عنه، يدير زاهي عنقه من جديد. يتوزعون جماعات جماعات. يتقدم بشير القصاب على رأس ثلاثة نحو مدخل جرماتي. يقيمون قوساً قبالة الجرن. يباشر آخرون بتسوية الشارع الإسرائيلي، يمسحون آثار المنسحبين. رافع يزيل العبارات العبرية عن جدران المدرسة، ينتشر حوله فتيان كثيرون: مع من ستكونون أيها الفتيان؟ تتجه جماعة أخرى نحو سطح المسجد، عبر درج المئذنة. ينفصل زاهي مع خمسة من الذين يعملون في الشارع. يعرجون على ما كان ذات يوم بيت سمية وأبيها وأمها وشقيقاتها: ألم نتفق يا شباب على تعميره قبل الانسحاب؟ لماذا لا نبدأ به اليوم؟ قال أحدهم متحسراً: لن يرجع كما كان. انتفض زاهي: لماذا ينبغي أن يرجع كل شيء مثلما كان؟ قال آخر: أنت دائم المخالفة يا زاهي . قال زاهي : جرماتي: إنهم يحتجزون مداك، لقد قصّوه. في الأفق ترابط قوات الأمم المتحدة، ترابط القوات الإسرائيلية. جرماتي أنت حزينة مثلي؟ قولي لهم: إنه انسحاب. قولي لهم: ليس تحريراً. قولي لهم: ما الذي يفرح يا بشر؟ أنتِ اليوم بلا حاكم ولا محكوم. هل فكرتِ في هذا من قبل؟ لا الملازم اسحاق ولا ديوب، لا البرزغل، لا الشيخ محب، لا الأستاذ قبلان، ولا الشيخ عبد الستار، ولا السكامنة، لا أحد، لا أحد، لا أحد فوق، لا أحد تحت، آه يا أمنا! هل يدوم ذلك؟ ها قد خرجنا إليك جميعاً: نزينك، نغسلك، نعمّرك، وعما قليل يعود الذين تركوك، الذين فروا، الذين هجّرهم الملازم اسحاق، يعودون جميعاً، تستقبلينهم جميعاً: أم سمية مثل تامر صبح مثل البرزغل مثل الـ... حاشا يا جرماتي، من يساوي بالرحمن الشيطان؟ هاقد عادت العقدة يا عزيزة: انسحاب: نعم، تحرير: لا، فرح: نعم، عمار: نعم، خراب: لا،

عائدون: لا، مقيمون: نعم، ثم: لا، لا، لا... سوف نبدأ من جديد. اصح يا زاهي.

(3)

هرع الشيخ محب وابنه إثر صلاة الفجر إلى بيت ديوب. نبحتهما كلبته الهرمة، فصاحت امرأته من الداخل مستفسرة، خرج ديوب لملاقاتهما. بادره الشيخ محب قبل أن يخلع حذاءه، فتفوح رائحة قدميه:

– لماذا لم تأت إلى الصلاة؟ لا يعلم غير الله ماذا سيحل بجرماتي: هل تصدق أن أحداً لم يصلِّ خلفي غير هذا الولد؟

جاء صوت ديوب كسيراً:

– شغل الناس عن الصلاة ما هو... استغفر الله.

وابتدأ ينظف بتراخ فتحتى أنفه الواسعتين.

همهم الشيخ محب. طرح سبحته الطويلة في حرجه، تربع على الطراحة. غطت إليته الضخمة الطراحة كلها. قال ابنه محاذراً:

– ماذا فعلت مع الضابط أخيراً يا مختار؟

تريث ديوب قبل أن يرد:

– كانوا مستعجلين والحمد لله. رفعوا العلم وقالوا يا ميسر.

لم ينقع الجواب غلّة الشيخ محب. اندفع كاشفاً عن رأسه الذي أتى الصلع على أكثره:

– عن هذا تسأل يا ولد؟ قل يا مختار: ألم يحدثك الضابط في شيء؟

دخلت امرأة ديوب حاملة ابريق الشاي. افترت أسنان زوجها عن ابتسامة مريرة صغيرة وقال:

– مختار! مختار يا شيخ محب؟ هه؟ ليرحمنا الله جميعاً.

وبلع ريقه قبل أن يتابع:

قال الضابط: - راجع لكم..

قدمت الزوجة كأساً من الشاي للشيخ محب. مسح الشيخ بباطن كفه على صلعته مراراً، ثم سأل:

- ماذا تتوقع؟

شفّ ديوب رشفة قصيرة صائتة ثم قال:

- كل سوء.. إذا نجونا بجلدنا يكون فضلهم على الرأس والعين.

أيدّ ابن الشيخ محب مقسماً. زجره أبوه وقال ماداً الحروف:

- تفاءلوا بالخير تجدوه. اللهم صل عليك يا محمد يا حبيب الله.

دعك ديوب قرني ذقنه الناتئين، متحسساً الندبة الكبيرة التي خلفتها الطفولة بين القرنين، وقال:

- من أين يأتي الخير يا شيخ؟ لن تضع قدمك بعد اليوم على درج المئذنة، ولا على عتبة المسجد.

قاطعه الشيخ محب محتداً، وهو يعيد عمامته مخفياً الصلعة:

- سوف تظل تسمع صوت الشيخ محب ما دام حياً.

أرخى ديوب ضحكة موجعة. قرّب شفتيه من أذن الشيخ التي تبعثرت في أنحائها شعيرات بيض طوال، وهمس:

- ربما، ولكن ليس في جرماتي.

جزم الشيخ محب:

- بلى يا ديوب، والأيام بيننا.

أطرق ديوب متمسكناً، وعاد إلى قرني ذقنه. قال بعد لأي:

- أما أنا فقد أودعت الختم مع بيزو، حتى يسلمه للبرزغل فور عودته. ليت الضابط رضي باستلامه.

قال الشيخ محب:

- أنت جبان. لم أعرفك إلا جباناً!

ونهر المرأة:

- اخرجي أنت. ماذا تفعلين هنا؟

أرجح ديوب رأسه طويلاً. انفجرت شفتاه عن بسمة هزء لم يلبث أن لجمها قائلاً:

- أمس كنت أسمعك: ليس في جرماتي بعدك رجال، واليوم! من تجرأ على حمل الختم بعد الاحتلال غير ديوب؟ من عـ ..

تدخل ابن الشيخ محب محاذراً:

- ما الحاجة إلى هذا الكلام؟ جرماتي شامتة بنا من دون..

قاطعه أبوه ملوحاً بكفه:

- أسكت يا ولد . نعم يا مختار.. نعم يا ديوب، إذا كنا اتفقنا من قبل، فيبدو أننا الآن سنختلف. أنا أيضاً حملت الأمانة وحدي بعد الاحتلال. لولاي هل قامت في جرماتي صلاة؟ أنا لا أسلم الأمانة حتى أسلم الروح إلى باريها. البرزغل يا ديوب لا يستحق الختم. الشيخ عبد الستار لايستحق الإمامة. كن رجلاً يا ديوب. مرة واحدة كن قبل أن تموت.

قال ابن الشيخ محب - رغبته تتضاعف في الحديث كلما زجره أبوه :

- الذي تركنا ونجا بجلده لا يستحق.

قاطعه أبو ملوحاً بكفه:

- هل طوب البرزغل الختم على اسمه؟ هل الإمامة في سلالة الشيخ عبد الستار؟ وقت الشدة يهربون، وبعد الانسحاب نتوجهم؟ لا يا مختار، لا يا ديوب.

بدا ديوب في منأى عن الشيخ محب وابنه. أجفل إذ سمع بلقبه واسمه. طوح برأسه في حرجه مراراً، ثم قال:

- لعلك سمعت الناس يذكرون البرزغل والشيخ عبد الستار والأستاذ. منذ طارت من الراديو كلمة الانسحاب بدأوا يلغون. حتى

نايف ذكروه. جرماتي تنتظر سلاطين جدداً غيرنا. هه! قد يعود السكامنة أيضاً. لا إله إلا الله.

ونهض متجهاً إلى الضوء الكازي المعلق في الحائط. أطفأ الفتيل، فرك عينيه، وحّد الشيخ محب ربه، تسلل ضياء الأشعة التي غمرت جرماتي خارج البيت، وعاد ديوب إلى مجلسه قائلاً:

– كانت غلطة قاتلة يا شيخ محب. ما نفع المكابرة؟ اليوم جاء دورنا، وعلينا أن ندفع بالتي هي أحسن.

همس ابن الشيخ محب :

– من كان يظن أنهم سيذهبون سريعاً؟

علت أصوات قرب البيت. شبّ ابن الشيخ محب عجلاً مستطلعاً. أبصر من النافذة الصغيرة الوحيدة عدداً من الرجال يتجهون إلى الساحة. وقف ديوب في فرجة الباب. أدار رأسه في سائر الجهات. أبصر جماعات أخرى في أنحاء متعددة. خاطب الشيخ محب:

– تعال وانظر قبل أن تكمل.

جمع الشيخ محب أطراف جبته. وقف متأنياً. سوّى عمامته وهمهم:

– مجانين. كل من في جرماتي مجنون.

ووحّد الله.

(4)

رددت التلال المتعانقة حول جرماتي أصداء قوية قادمة من الداخل السوري. حثّ رافع الفتيان على تنظيف المدرسة. وضحت الأصداء رويداً رويداً. أقسم رافع أنه تراكتور السكماني ، وصاح فتى:

– الصوت ليس للتراكتور وحده.

تجمع الأطفال على مطل جرماتي. خرجت الصبايا من الجرن إلى السكة يستطلعن. شرع الرجال يتقدمون نحو الجرن. انتصب قوس موشّى بالأغصان الكبيرة المبتورة للتو. حليب الأغصان ينقلب دبقاً. سيارة لاندروفر صالون تطل على الجرن. البرزغل وحده في صدر السيارة. ارتفعت أصوات بعض الرجال مهللة. تقافز الأولاد سعداء هازجين. توقفت اللاندروفر تحت القوس العالي. انطلقت قرب الجرن زغاريد متباينة. ترجل البرزغل يقبل الرجال. أحاط الأولاد بالسيارة من كل جانب. لبث في المقاعد الخلفية أطفال البرزغل العديدون وأمهم. أرعشت الجلبة العالية البرزغلة. أراد البرزغل أن يقطع بقية الطريق ماشياً بين الرجال. أصر الرجال عليه أن يستقل السيارة. تعلق بالسيارة عدد من الشبان والأولاد. رجا أطفال البرزغل أمهم وأباهم أن يسمحا لهم بالنزول. علت زغاريد الصبايا ثانية من ناحية الجرن.

زجر البرزغل أطفاله. هشّ للصبايا معتزاً. رمق امرأته بطرف خفي. رمق سائق اللاندروفر: الله الله يا برزغل! هذه السنة جعلتك ابن السبعين. ما الذي أناخ كتفيك؟ أين ذهبت حمرة وجنتيك اللتين ظلتا مكتنزتين جيلاً بعد جيل؟ شواربك تشعّثت، اكتمل بياضها، ولّى استواؤها، لم تعد الصبغة السوداء تنفع فيها، لم تعد تنفع في شعرك أيضاً. سقط الشعر بغتة. ها قد عدت بصلعة أكبر من صلعة الشيخ محب، لكنك لم تسترها بعمامة. تبرق صلعتك تحت الضوء النهاري الساطع، تكذب العيون فيك ما ترى. الله الله يابرزغل! ماذا فعلت بك هذه السنة؟ أين غارت وساوسك؟ لم يبق عليك إلا أن تلتقي بديوب.أعرف أن عينك على المختترة يا ديوب. منذ سنين وسنين وأنت تسعى. هذا ختمي في جيبي لم يزل. هذا ختم الجمهورية العربية السورية. الختم الذي صنعه لك أصحابك لم يعد يحميك بعد رحيلهم. هل ظننتهم يخلدون في هذه الديار؟ لماذا لم تجمع حاجياتك وتلحق بهم؟ العمى ! في الضفة الغربية عجز أسيادك قبل أن يجدوا من يستلم منهم ختماً! العمى! في الجولان، جيرانك، بعد سبع سنين من الاحتلال،

تجرأ ديّوث مثلك وحمل ختم العدو! مهلك مهلك على البرزغل مهلك. من تحت هذا الإبط مرقت عشرون حكومة وحكومة، فمن تكون أنت؟ من أيام السلاطين حتى هذه الأيام، فمن تكون أنت؟ صحيح أننا غلطنا يوم تركنا جرماتي. سنقول إذا احتاج الأمر ذلك. سنقول يا شيخ عبد الستار يا أصل كل بلاء. لولاك لما تركت لديوب وغير ديوب عليّ ممسكاً. وحدك لعبت بعقلي، وجعلتني أنزح قبل كل البشر. لو لم أستجب لك من أين كانت جاءتني هذه الفضيحة في شيبتي؟ من أين كانت تجرأت عليّ كنّتي في آخر عمري، وأنا أخرس من حجر؟ من أين كنت أهتم لديوب أو غير ديوب؟ تابع أيها السائق تابع. سوف أنزل عليك يا مختارهم ضيفاً ثقيلاً. سوف أنادي عليك من نافذة السيارة. ألا زلت تحمل الختم يا ديوب؟ سوف يفرك الوغد يديه ويتأتىء: خير إن شاء الله يا برزغل؟ هل تريد أن أختم لك ورقة؟ سأكون أول زبون بعد الانسحاب. سوف يختم لي مجاناً، فأنا مختار جرماتي القديم. سوف أصرخ في وجهه: هات الختم إذا كنت لا تزال تحتفظ به، أما إذا أخذوه معهم فمع سلامة الرحمن. سيتشدق كعادته: والله يابرزغل الختم في جيبي. أمس كنت عند مدير الناحية أو أول أمس. إذا كان الختم القديم في جيبك، فيجب أن تسلمني إياه، أم أنه من مفقودات الحرب؟ سوف أصفعه، أبصق في وجهه، أجمع عليه نساء جرماتي قبل رجالها: أنا البرزغل، أنا المختار، أما أنت فمن الذي نصّبك أنت؟ ألا تستحي من الله؟ ماذا قلت لمدير الناحية؟ سوف يعيرني كالعادة بالسبعين والثمانين. سوف يقول، رجْل في القبر ورجْل برّه، وتأتي بأي عين تطلب ما تطلب؟ سوف يتحداني: هل نسيت أن المخترة سقطت عنك يوم تركتها وهربت؟ حينئذ لن يبقى أمامي غير الضرب. سوف ترون أن البرزغل لا يزال صلباً. لا تغرنكم الكتف المهدودة، الصلعة الطارئة والشوارب النازلة. وأوقف السائق السيارة في وسط الساحة.

خرج بيزو مهرولاً مسلماً. ترجل البرزغل آمراً السائق بالمتابعة إلى البيت، ونهر البرزغلة:

– دليه أين يذهب بك.

سار بيزو خلف البرزغل الذي اتجه إلى الدكان. لم يهدأ لسانه والبرزغل غافل عنه: هل كنت حقاً لا تنوي أن ترجع إلينا يا مختار؟ هل صحيح أنك بعت كل مالك في جرماتي للقبالنة؟ هل صحيح أن ابنك الكبير اشترى لك ثلاثة أمتار في مقبرة الشيخ محي الدين بطرف الشام؟ سئم البرزغل ثرثرة بيزو، سأل ممتعضاً:

– من أين تأتي بهذا الكلام كله يا بيزو؟ ألم يقصوا لك شيئاً من لسانك؟

ضحك بيزو مستذكراً شتائم البرزغل القديمة. أخفض صوته وزمّ شفتيه. قال:

– هذا ما علمنا إياه ديوب في غيابك يا مختار.

وصلت أصوات الرجال إلى مشارف الساحة. وصل التراكتور خلفهم. انتزعت الجلبة بيزو من حضرة البرزغل. انتظر بتشوّف دخول الرجال إلى الدكان. سأل البرزغل عقب صمت قصير:

– ماذا علمكم ديوب أيضاً؟

أجفل بيزو. تعجب من سؤال المختار ناسياً كل ما كان قد نطق به. ودخل بشير القصاب وتبعه رجال كثيرون يسلمون على المختار العائد.

(5)

رابط الشيخ محب قبيل الظهر في المسجد، ومعه ابنه. أحس بقوة خفية تدفعه إلى التمسك بالمئذنة والمحراب. عدّ ذلك إلهاماً من الله. رثا طويلاً في سره وعلنه لديوب. حلّ الأذان. هرع إلى سطح المسجد عبر المئذنة المعقوفة. رفع الأذان كالعادة. استوقفه في البداية خلوّ الساحة من الناس. دكان بيزو نفسه مغلق. رفع صوته ما وسع بعقابيل الأذان. لم

يواته هذا الصوت منذ أذن أول مرة في جرماتي. لم يلبّ أحد ممن يرغب في قدومهم. أدى الصلاة مع ابنه وعجوز يلازم المسجد من الربيع إلى الخريف. تربع عقب الصلاة يسبح مفكراً في غياب أهل جرماتي. أتراهم في بيت البرزغل ؟ لعل قسماً منهم في بيت تامر، أو في بيت ابن جوجية. كل عائد ينبغي أن يجد من يلاقيه، يحتضنه، يحمل معه حاجياته، ينقل اليه جرّة ماء، طبقاً من الأطايب، ولكن هل يلهي ذلك عن الصلاة؟ كيف سيغفر الله لك يا جرماتي؟ في الفجر لم يصلّ أحد، وفي الظهر، وهلّ العصر..؟ هل تركت أيتها الملعونة صلاتنا تنسحب مع المنسحبين؟ استغفرْ ربك يا شيخ محب. دبّرْ حيلة جديدة تجمعك بالبرزغل. كنت تأمل قدومه على رأس المصلين. بيت الله الحرام يحل المشاكل طراً. والشيخ محب يرجو أن يتم ذلك قبل أن يظهر الشيخ عبد الستار بين العائدين. يهمّ في مغادرة المسجد إلى بيت البرزغل. يخشى أن يفرّ النهار من بين يديه، يغلب التردد عليه. يحسد ديوب على استسلامه وطمأنينته. ديوب ارتاح واستراح. عاف الختم وبلواه، وسابق جرماتي إلى بيت البرزغل. هل يقدر الشيخ محب أن يجاري ديوب؟ أين عزة النفس؟ أين الدين؟ الشيخ عبد الستار تخلى عن كل شيء في الحرب، فما عذري حتى أتخلى في السلم؟ المخترة لها مشاكل دنيا وحكومة وما أدراك، أما الإمامة؟!

غفا ابن الشيخ محب في فم المحراب. استذكر الشيخ صلاة العصر متأخراً، انتفض ضارباً ابنه، طائراً إلى الدرج. تضاعف حماسه إذ أبصر بعض الرجال يطلّون من أبواب بيوتهم، باب دكان بيزو موارب. ودَّ لو أن الأذان أكثر طولاً. هبط الدرج متمهلاً، لكنه لم يكد يطلّ من الباب الصغير المؤدي إلى المئذنة، حتى شهق شهقة عالية. أحس أن قلبه يوشك أن يسقط بين قدميه. ارتد إلى الخلف مستنداً إلى جدار المئذنة. تملّى من أرجاء المسجد. عاد فركز عينيه على ابنه. نقلهما ببطء عاجز إلى الشيخ عبد الستار الذي راح يتقدم من مدخل المئذنة، رويداً رويداً. دقق الشيخ محب في لحية الشيخ عبد الستار: لابد أن المقص لم يهذبها منذ وقت

طويل. قد يكون الشيخ عبد الستار بدل من عادته بعد النزوح. تفحص الشيخ محب عمامة الشيخ عبد الستار أيضاً، رقبته، جبته، السبحة، اليدين، القدمين، الخطوات، أصابع قدميه، الشعرات النزرات الطويلات في ظهر كل أصبع. كل ما في الشيخ عبد الستار قد تبدل: العمامة جديدة، الجبة، السبحة، الأنف يلمع، اليدان، الرقبة ترهلت، الشفتان غابتا وسط الشعر الأبيض المسترسل، الأذنان اختفتا تحت طيات العمامة السابغة. جمع الشيخ محب شتاته وبادر:

- ماذا تفعل هنا يا شيخ عبد الستار؟

توقف الشيخ عبد الستار. أخرج من جيب صدارته تحت الجبة ساعة مدورة مربوطة بسلسلة فضية طويلة ناعمة، وقال:

- أهكذا يسلمون يا شيخ محب؟ منذ متى لا تقيمون الصلاة في أوقاتها؟

أنكرت أذنا الشيخ محب صوت الشيخ عبد الستار. الصوت قد تبدل أيضاً. ودخل أول المصلين.

(6)

غصّ المسجد بالرجال يتقدمهم البرزغل نفسه. فوجىء المصلون بالإمام عبد الستار يهرع نحو المحراب، يرابط في فوهته. تدافعوا يسلمون عليه، لكن صوت الشيخ محب علا بينهم:

- ابعدْ من هنا أيضاً، لقد لفظك المكان مثلما لفظته.

أفسح الرجال للشيخ محب الذي كاد يصطدم بالبرزغل. ارتد الشيخ محب هلعاً. كادت عمامته أن تسقط. استحضر ابتسامة عريضة، فتح ذراعيه محتضناً. سرت همهمة بين المصلين. تحلق المصلون حول المحراب. تسلق عدد منهم المنبر يغالب خفقان الفؤاد. استمر الشيخ عبد الستار في صمته يداعب السبحة. تقدم الشيخ محب خطوة أخرى من

المحراب. أمسك بكتف الشيخ عبد الستار مزيحاً إياه بدفعة قوية، صرخ في وجوه الرجال:

- أيرضيكم هذا يا عباد الله الصالحين؟ ما لكم تتفرجون؟ الصلاة الصلاة.

ظهر في مقدمة الرجال بيزو، ديوب، بشير القصاب، وسُمِعَ صوت الشيخ عبد الستار وانياً:

- بيوت الله ملك الله. بيوت الله ليست لعبيده. كيف تمد يدك لي ياشيخ محب؟ كيف تعتدي على حرمة هذا البيت؟

صمم الشيخ محب على حسم الأمر. سوف يفعل لسان الشيخ عبد الستار في الرجال فعله، لو تأخر، فصاح:

- مادخل هذا الكلام بالذي نحن فيه؟ أنت تريد أن تعود للإمامة والإمامة ليست إرثاً.

همس أحد المصلين في أذن بشير القصاب من الخلف:

- قالت لي الحرمة: عاد الشيخ عبد الستار بعد البرزغل، فلم أصدقها. حلفت برأس وحيدنا أنها رأت العرجاء[1] وأخته تضربانه وتطردانه: ما بقي لك عندنا خبز بعدما فضحتنا وتركتنا لتسلم برأسك.

وأخفى الرجل ضحكة قصيرة. التفت نحوه بشير القصاب مشاركاً. تقدم البرزغل محيطاً بالإمامين، وقال:

- اخزوا الشيطان.

علا صوت من يمين بيزو:

- صلوا على النبي.

أردف البرزغل وقد وضع على كتف كلّ إمامٍ يداً:

- اخزوا الشيطان والصلاة لا تنتظر.

انطلق الشيخ محب بصراخ أقوى:

---

(1) العرجا: امرأة الشيخ عبد الستار.

- لم يعد لك في جرماتي إمامة. ادفعْ جزاء ما جنيت. لا يجوز أن يناديك أحد بالمشيخة بعد اليوم. أنا أفتي بطردك من كل صلاة. صفوفكم يا مؤمنين.

وانزلق من تحت ذراع البرزغل يحث الرجال. عاد المصلّي الذي كذب زوجته يهمس في أذن بشير القصاب:

- مسكين! يطردونه من بيته ومن المسجد؟

قال أبو رافع متشفياً: يستحق.

قال الرجل: إن الله غفور رحيم.

قال أبو رافع: وشديد العقاب.

أدمى البرزغل شفتيه وهو يحاول السيطرة عليهما. أطبقت على سمعه كلمات الشيخ محب: لم يعد لك في جرماتي إمامة، بعدما تركت وتركت وتركت، تريد النجاة النجاة النجاة، ادفعْ جزاء ما جنيت، ادفع يا شيخ عبد الستار، ادفع يا برز..لا..لا، وفرّ إلى مخاطبة الناس مهتاجاً:

- دعونا نقيم الصلاة. تعالوا بعد الصلاة إلى بيتي جميعاً. سوف نصلح كل شيء.

قال الشيخ محب بصوت هادىء واثق:

- سوف أقيم الصلاة!

قال الشيخ عبد الستار:

- سوف أقيم الصلاة.

تساءل بيزو:

- خلف من نصلّي؟

التفت الشيخ محب إلى بيزو. حدق فيه منغماً همسه:

- بيزو.. أهذا وقتك؟

طأطأ بيزو وقال بصوت مسموع:

- نصلي خلف الشيخ محب.

سأل رجل من وسط الصفوف:

- هل ننقسم لنحل المشكلة؟

خاطب الشيخ محب البرزغل:

- لماذا لا تعلن كلمتك يا مختار؟

أسرع الشيخ عبد الستار:

- المخترة غير الإمامة يا بيزو. إذا استطاع الإسرائيليون أن يولوا المخترة، فهم لا يستطيعون ذلك في الدين.

انصبت العيون على ديوب. تطامنت هامة ديوب، وقال بيزو مداهناً:

- لا تغضب مني يا شيخ عبد الستار. فليقم الشيخ محب هذه الصلاة، ثم نذهب إلى بيت المختار.

دس الشيخ محب أنفه في أذن بيزو، وفحّ:

- بدأت تلوص يا بيزو؟ أهذا ما عاهدتني عليه؟

انتفض بيزو، تلفّت، بوغت بعيني البرزغل تلمعان. دس البرزغل أنفه في أذن بيزو الثانية، وفحّ:

- لا تقلق، لست غريباً عنكما.

لعلع صوت الشيخ عبد الستار في أرجاء المسجد:

- أنت عميل وهو عميل. كلكم عملاء. نحن الذين نجونا بشرفنا. لم نضع وجهنا في وجه يهودي. لم نمدّ يدنا للعدو. تأتون الآن وتنازعوننا في كل شيء؟ تتباهون علينا؟ لماذا لا تقول كلمتك يا مختار؟ اليوم يتطاولون على الشيخ عبد الستار، وغداً يأتي دورك.

اختلطت كلمات الرجال وهمهماتهم، ثم تعالت. انسحب ديوب من صدر الحلقة المحيطة بالشيخين، وقال رجل:

- ضيعونا والله. الحق مع من؟

همس المصلي الذي كذب زوجته:

- الحق مع امرأة الشيخ عبد الستار، اسألوها.

ولم يخف ضحكته. سُمِعَ صوت الشيخ عبد الستار يجهش. قال الرجل:

- ارحموا عزيز قوم ذل.

همس آخر وهو يتلصص من فوق أكتاف الرجال:

- الأفضل له أن يلحق بديوب.

قال أبو رافع غامزاً:

- رحمة الله عليهما.

وضحك هو وجاره. وعلا اجهاش الشيخ عبد الستار وهو يتهاوى ساجداً على سجادة المحراب الحائلة.

التفّتْ سبحته الطويلة حول عنقه. سقطت عمامته. أخذ المصلون يدورون حوله، يلغطون ويخرجون ويستغفرون الله، يبحثون عن الشيخ محب، ويفكرون في أمور الدنيا والدين.

(7)

تمتد بيوت جرماتي صُعُداً في التلة الكبيرة. متلاصقة في بعض المواقع، متجاورة دوماً، تاركة فيما بينها فجوات للتنانير، الزرائب، مكادس الحطب والمصاطب التي تظللها في الصيف عرائش الدوالي. يبتدىء مسلسل البيوت ببيت تامر صبح. كان ينبسط أمام البيت قبل الاحتلال كرم الكرز الأول في جرماتي. حاذى التراكتور دباقة الكرم. لا يزال أساس الدباقة يفصل بين السكة وتراب الكرم. أطلّ البيت الخاوي المخلّع على التراكتور، منذ اجتاز الجرن، فالمقبرة، فسنديانات الشيخ ابراهيم. كان تامر صبح في سفراته الأولى يوقف التراكتور قبالة الكرم، ينزل مع حمولته، يختصر المسافة التي تفصل بيته عن الساحة. لبث تامر

الآن يراقب الأطلال.ساميلا في التريللا تفعل أيضاً. ترقب ما سيأتيه. تامر يود اختصار المسافة كما في تلك الأيام، يفتقد الريق في حلقه، يضع كفه فوق صدره، يخشى أن يسقط فؤاده، يود أن يذهب إلى الساحة ليسلّم على جرماتي هناك، يسرق التراكتور منه الأمتار القليلة بين المقبرة والساحة، يلقى الساحة شبه خالية. ينقبض مخيباً، يداهمه اللغط في المسجد المجاور، تستحثه نظرات ساميلا، يرغب في استطلاع اللغط. نار ساميلا تكوي المهجة: انظرْ إلى بيتنا يا تامر. تامر يحمل أكثر من الجمل، يتجاوز أساس الدباقة، يسير في الكرم، لا تعترضه حجرة، لا حصاة، لا غصن. تكاد قدمه أن تغوص في التراب الناعم. تضيع قامته القصيرة بين الحمل والتراب. يبدو كتلة هائلة تندفع نحو البيت. ليس هذا التراب ما خلّف تامر صبح في الكرم. أين صلابته؟ أين حصاه الناعم الأبيض؟ سمرته الغامقة؟ دباقته العالية؟ أطلّ البيت أثر الكرم. انهارت الوصلات[1]، جدائل القصب، اختلطت بأكوام التراب، بالسدادين[2]، ساميلا تركت السدادين ملأى وقت النزوح، القسم الخلفي بلا سقف: لعن الله تلك الساعة، قلت لك يا تامر اتركهم يهربوا. على ماذا أنت خائف؟ قال: عليك يا ساميلا! ساميلا والله العظيم خائفة عليك. أبو سمية كان خائفاً عليك. وحدك من بين كل رفاقك ولّيت. ابن الشيخ محب نفسه لم ينزح. لو بقينا لما كان الذي كان. من أين سنأتي بمثل هذا القصب؟ أية عجوز في جرماتي ستعمر لي مثل هذه السدادين؟ من أين سأملؤها حنطة، ذرة، تين يابس، عدس، بصل، ماذا جرى لك يا جرماتي؟ ماذا فعلت بك هذه الشهور التسعة؟ لو حملتك في بطني تسعة شهور ، لوضعتك أجمل مخلوق في الدنيا. آه! كنت حملتك مع ابن تامر. آه! كان سيأتي شهوة كل رجل وامرأة، ولكن ألم تكوني معي كل ثانية؟ أين كان البيت إذن؟ أين كان الكرم؟ أين كانت الساحة؟

(1) أعمدة خشبية، سوق شجر الحور خاصة، تستخدم في سقف البيوت الطينية.

(2) جمع سدون: عنبر من الطين لادخار المؤونة.

الزقاقات؟ المدرسة؟ المشمش الذي كان الخريف قد عرّاه وصفّره؟ السواقي الناشفة الضامرة؟ ماذا فعل الإسرائيليون بي إذن يا جرماتي؟ ماذا فعلوا بك؟ صندوق العرس مخلع، منهوب، المعلف الداخلي مهدود، عيدان العرزال الشتوي في كل مكان، السقف، هذه السقف محروقة، تلك مهدومة، الحوارة التي بيّضتْ بها البيت في الصيف لا تزال نظيفة في الجدار الأمامي، الزنار البني الذي صنعته من الروث لا يزال زاهياً، مستقيماً، فأين مدوا أيديهم، أين لم يمدوا؟ قن الدجاجات في باحة البيت، لا قن ولا دجاجات. لا دالية تعرّش على مظلة المصطبة، لا مظلة، لم يبق في بيتك يا ساميلا غير الذكرى.

تامر يريد أن يبدأ في القسم الأمامي. ساميلا تريد أن تهدم هذا القسم ايضاً: دعنا نعمره كله من جديد. ما أكره الترقيع! وتامر يهز رأسه:

- احمدي ربك إذا استطعنا ترقيعه. أمامك شغل يكفي أربعين. أين قصر يلدز؟

ويغادرها باحثاً عن زاوية في الأرض المحيطة. أين سيضع فضلاته؟ لقد هتك الإسرائيليون بيتي، فضحوا أرضي. كانت جرماتي تحسدني. الأشجار تسترني، الدباقات، استباحوني والله. ياأهل جرماتي تساوينا. وصوت ساميلا يقهقه:

- بماذا تساويتم يا عيوني؟

ساميلا مقرفصة تبعد كومة صغيرة من الركام. تهيىء مكاناً لإيقاد النار. تراقصت أجفانه مع اهتزاز عجيزتها. زادت القرفصة العجيزة اتساعاً وسمنة. مسحت أجفانه ظهرها الصلب. يا رحمن! ما أصلب هذا الظهر! ما أكبر هذه الأرداف! أين تخبئين حسنك ومفاتنك يا أخت الروح؟ كل يوم أكتشف فيك جديداً. سنة وراء سنة، ينفتح في ساميلا سر، تنغلق أسرار، ساميلا تنظف الأرض ، الزريبة، القن، تملأ المعلف، تحلب، تعجن، تخبز، تغسل، تطبخ ، تذهب إلى دكان بيزو، تنقل الماء من جرن النبوعة، لا ترضى بغير المقرون، تروح، تجيء، مثل المكوك، كل

عين تراها تصلّي على سيدنا محمد، تحسد تامر صبح على حظه الذي يفلق الصخر، فقط لو أن الله أتم نعمته بولد. آه يا ساميلا، آه يا شيخ ابراهيم، ولد واحد فلا أحسد من بعده رئيس الجمهورية. وصوت ساميلا يقهقه:

– ما به رئيس الجمهورية؟ هل أدبّ عليك الصوت؟

أسرع نحوها مأخوذاً، وأردفت واقفة:

– تامر صبح جنّ يا جرماتي!

وغرقت في ضحكة جذلى، فأحاطها بذراعيه.

(8)

أودع الرقيب غالي ابن جوجية في التريللا أشياء بيته الصغيرة. دار دولاب التراكتور دورته الأولى. أطلق غالي لصوته العنان، بارح البيت الشامي أخيراً. انحدر التراكتور من قمة قاسيون. هذه بربهان تلتحم بك، الرضيعة في الحضن، الشام من خلفك، وجرماتي سوف تظهر عما قليل. ليس في التريللا سوى أسرتك الصغيرة. غنّ كما لم تفعل منذ حرموك منها. هل تغار من النسيم الذي يرمي بشعر بربهان في كل اتجاه؟ يفضح بياض رقبتها، دقة أذنيها، القرط الذي أهديتها إياه قبل أن تتزوجا، قبل الخطوبة، منذ أن كنت تتلصص عبر الكروم من أجل عينيها. افتح أزرار سترتك العسكرية. دع النسيم يعابث صدرك أيضاً: شعر كثيف وأجعد، تغرق فيه أصابع بربهان النحيلة القاسية، يتمازج بياض بشرتها بسواد الشعر، تثور رغبتك، تلصق شفتيك بأذنيها، لولا أن يقولوا جنّ غالي، لقلت لها ارفعي فستانك، وتغرغر بربهان بضحكتها القديمة: من سمع جرن النبوعة في ليلة مقمرة، قبل الفجر، وجرماتي هاجعة؟ ضحكة ابنتك في سنتها الأولى أقوى من ضحكتك يا بربهان! هيا أنتَ، بك البركة، صوت المهر، وحنجرة أكبر

من التفاحة، تعلو، تنزل، تصدح، تعجب، تمدّ بربهان أناملها، تتلمس رفيقة: هذه تفاحة آدم. وهذه رمانة حواء، رمانة في اليمين، رمانة في الشمال، ويدعك غالي الرمانتين، تعض ظاهر كفه بأسنانها الدقيقة، تضرع مرتعبة من عيني السائق. اعقل يا ابن عمي. هل جننتك جرماتي؟ وينتصف الطريق، يتوارد النازحون من جرماتي، من الحورانة، الخسفات، الدلبة، يستوقفون التراكتور. يملأون التريلا، تنفصل بربهان عن غالي قليلاً، يوشك التراكتور أن يعجز في مشارف جرماتي، ينزلون من التريلا. بقايا القصف تعترض السبيل، حفرة كبيرة وحفرة صغيرة، يهمون بحمل التراكتور، يهش عليهم السائق بكفه شاتماً مجدفاً. لم يتبق من آثار السكامنة في جرماتي غير التراكتور، العمارة خاوية منذ برحوا، الأراضي بور، كل يوم يبيعون قطعة، كرماً، وأرزاقهم لا تأكلها النيران. يعود النازحون إلى التريلا، صرر، فرش، حقائب، نساء، أطفال، أجناب التراكتور مغطاة بالأيدي والأرجل. تجتمع على التراكتور في الساحة كباكب الناس، يهرع غالي مسلماً على كل من يصادف، يلقي نفسه منفلشاً، فرحاً، عاجزاً، مرتبكاً، مشغولاً: الأغراض، الليل الذي مد جانحيه حاجباً جرماتي، البيت، شقيقة بربهان التي قتل زوجها في الحرب، يسمعها بين اليقظة والمنام:

- إلى أين؟ ستبيتون عندي. ماذا بقي من بيتكم؟

عقلته دعوتها هنيهة، جعلته يعدو، ترك الأغراض قرب بربهان وشقيقتها، هل صدق الأستاذ قبلان في أخباره؟ الشتاء، الاحتلال، ابن جوجية يزور الأستاذ، هل كذب الأستاذ؟ أخبار الشارع الذي شقوه هدت أركاني. الإذاعات حكت عنه. ماذا سمعت يا أستاذ؟ بيت (أبو سمية) مسحوه. لم يهدموا حجراً يا غالي. ولا بيتي ياأستاذ؟ متى فعلوا هذا كله إذن؟ بيت أبو سمية كان هنا. منذ خمسة آلاف سنة كان هنا. أين ذهبوا بأحجاره؟ أخشابه؟ سياجه؟ أغراضه؟ هذا بيت بدور العتال أبو صلاح، ماذا تركوا لك يا بدور؟ هذا بيتك يا ابن جوجية، هذه الأشباح تهدم، هذا الأستاذ يتكلم، هذه بربهان مفضوحة، هذه الرضيعة لا بيت. لا بيت.

تركت بربهان الرضيعة وشقيقتها والأغراض عادية خلفه. لمحته من بعيد مصلوباً فنادت. استدار بشق النفس نحوها. حاذته ودفعت به، تقدما يدوسان على الألغام، هذا ما ورثه غالي من أمه. كان خربة من التراب، فعاد. جددها منذ صيفين مع بربهان، جعلها غرفتين، سقفها بالباطون والحديد، صب أرضها، صارت مداً من أسمنت أملس وأزرق. قالت بربهان:

- لو هدموه بالعكس لكانت ذهبت غرفة وبقيت غرفة!

ناست شفتاه الميتتان:

- كيف يكون الدمار أكبر إذا لم يقطعوها هكذا؟

سبقته إلى داخل المتبقي من الغرفة اليسارية، أردفت:

- وآخرون قالوا إن الإسرائيليين يعمرون القرى التي احتلوها هكذا. فلسطين صارت جنة على أيديهم! آخ يا بيتي!

حكّ غالي صدغه. لم يفلح في العثور على اسم من أسمعه ذلك من قبل: في البيت؟ في الثكنة؟ كان الفكر مبلبلاً، حكوا كلاماً صعباً، أولاء يعمرون بلادنا؟ يا ساتر! انتقلت بربهان إلى أطلال الغرفة اليمينية، دققت في الجدار المقصوص، الأسمنت المسحوق، الحديد، الحصى المهروس، السواد الذي تركه التفجير، كم عاندهم هذا البيت، المسافة التي أخذها الشارع من البيت، القن، الموقد، العريشة، البئر الصغير الذي حفره في آخر إجازة، قال غالي:

- أخذوا معهم كل شيء. حتى التراب!

قالت ممعنة:

- أخذوا الروح.

قال:

- لِمَ عدنا يابربهان؟

صمتا، أطرقا، انتفضا، دارا، عبثت الأيدي، الأقدام، وصل صوت شقيقة بربهان، بدا غالي يبحث عن سرٍّ ما، صاح ببربهان:

- بمَ كنا نهرف يا امرأة؟ لقد تركوا لنا كل شيء. هيا نأتي بالرضيعة والأغراض، لن ننام عند شقيقتك.

(9)

سوف تملص المأذونية كالزئبق. كيف يهدأ غالي؟ ستة أيام بطلوع الروح وقعها الملازم: يا سيدي قلبي محروق على جرماتي. بيتي يا سيدي، أرضي، الحرمة يا سيدي فضحتني، قتلتها جرماتي مثلي. رق قلب الملازم، دبر للرقيب غالي إجازة، نط غالي شبرين عن الأرض، نسي العسكرية، أجفل متذكراً النجمة التي تلمع أمامه. هذا كتف ضابط، صوص لم تفقس عنه البيضة، خبط غالي الأرض ببوطه الجديد، حيّا باحترام شديد، انصرف قبل أن يداهمه أمر يطير بالإجازة. حردت شقيقة بربهان. لماذا لاتنامون في بيتي؟ وغالي إذا حرن لا سبيل إلى ثنيه.

جاءه عشاء كثير، لا يدري من أين. لم يبلّ ريقه حتى انتصف الليل. غطى العورة الكبيرة التي تركها التدمير في الغرفة اليسارية. نظف قليلاً أمام البيت. ركب أرجوحة للرضيعة من حبل وعِدْل. لم يستقر لابنته على اسم بعد. صار عمرها قرابة السنة، ولا يزال يناديها: يا رضيعة. أراد أن يسميها باسم أمه، فلم تقبل بربهان.وقعت الحرب. أراد أن يسميها باسم جرماتي، فلم تقبل بربهان. نفض يديه، تربع قربها معلناً عن جوعه الذي اضطرم دفعة واحدة. كومت الأغراض في الزاوية المستورة من الغرفة اليسارية. نصبت موقداً صغيراً، متى ذهبت إلى جرن النبوعة؟ متى زارت الشيخ ابراهيم؟ متى سرقت حملاً من الحطب؟

وعندما هجعت جرماتي أخيراً أقبل الزوجان على الطعام نهمين. اختلطت أصوات الحشرات الليلة بصوت مضغهما المتلذذ العجول . هبت نسمات جرماتي الليلية القديمة التي تربيا عليها. استلقى إلى جوارها بعد العشاء. هبت نسمات أخرى. استرخى متنعماً بالشبع،

النسيم، حرارة زندي بربهان، تعرى الزند الأيسر، لاصقه، همّ بها، تمنعت هامسة:

- أنت اليوم تتعجل كل شيء. ذكرتني بأول ايامنا. مابك؟

حاصرها ذراعاه، التحمت بشعر صدره، بحّ صوتها:

- أين صار المكان الذي كنا ننام فيه يا غالي كل صيف؟ ليتهم تركوه لنا!

رفع رأسه عنها، أرسل عينيه إلى ذلك الركن الذي لم يعد له وجود في العالم. غاص الفؤاد في مكان ما. هرب من بين الضلوع. ارتجفت شفتاه. انغرز ألم حاد في قرارة الصدر. أوشك أن يبكي. استلّت الشهوة، ذوى، أراد فقط أن يضم بربهان، يلتجيء إليها ويبحث معها عن زاويتهما المفقودة. ألصق خده بصفحة صدرها يبكي وينام، اخترقت سمعه صيحة ديك لأحد الجيران. نهنهت الرضيعة. مال رأس بربهان، ألقمت الرضيعة ثدياً ممتلئاً، اختلطت عليها نهنهة ابنتها ببقايا النعاس. انجذب رأسها نحو الأسفل، جاءت أصوات خفيفة متلاحقة من الخارج: ليس لك يابربهان نزلة إلى الشام بعد اليوم. انقطعت خبزتك من قاسيون. كانت المدينة تشتعل بالأنوار العجيبة من المغيب حتى طلوع الشمس، في الشتاء كما في الصيف. وبربهان من تحت قمة قاسيون بخطوتين ترقب الشام. تسأل الشام عن جرماتي، عن الخربة التي عمرتها مع غالي، عن المشمشات التي وهبك إياها أبوك يوم عرسك. ويطلع الصباح دوماً بخبر جديد. الناس تفرقوا في كل مكان، مرة تندمين على النزوح، مرة تتعزين بغالي، بالآخرين، وأنت لم تخالفي وصية غالي قبل ذلك اليوم. غاب وهو يردد لك: البيت، المشمشات، البنت، الدنيا مقبلة على الحرب،انتظريني يا عيوني، حياً ميتاً سأعود يا بربهان. من يعلم غير الله أين كنت تحارب يا غالي؟ رأيتهم يجمعون أشياءهم ويرحلون على الأقدام، لم يعد السكماني يرسل التراكتور، اقترب القصف من جرماتي، هرب الإمام عبد الستار، هرب البرزغل، صارت شقيقتي تنق في رأسي، بدأت المسبحة تكر. قلت لهم. غالي أوصاني، قالوا: كوني بنفسك الآن،

بالرضيعة، ما عليك من غالي. سمعت هدير الدبابة بنفسي هناك، قلت لم يصلوا إلا على رأس غالي. ماذا بقي لك يا رضيعة؟ راح أبوك قبل أن يسميك. أخذت الطائرات تروح فوقنا وتجيء. ضعت في ذلك الحبل الطويل من البشر، الدواب، التراكتورات، الكلاب، الخرفان، الدم، ليست جرماتي وحدها. إلى أين تسير بنا الدروب؟ هل تذكر حكايا عديلك عن ذلك النزوح من القنيطرة؟ رحمة الله عليه. لماذا ينتظم الناس في كل حرب بذلك الحبل، على الطريق المسرعة إلى الشام؟ كم يوم أطول من دهر مرّ عليّ في الشام وأنا لائبة:

– أين غالي يا ريح؟ أين غالي يا بشر؟

صاح غالي فوق رأسها:

– ما شاء الله عليك! البنت عيونها تلعب وأنت؟ ألم تشبعي النوم؟ بكري إلى الساحة وانظري من تجدين يأتي إلى معاونتي. هل تظنين أنني أستطيع أن أعمر لك وحدي كل ما خربوه؟ نادي شقيقتك أيضاً.

فنهضت متثاقلة تغمغم.

(10)

أفاقت جرماتي على موت الشيخ عبد الستار. عجّتْ أزقتها بالأقاويل: امرأة الشيخ عبد الستار أصرّتْ على طرده. الشيخ عبد الستار قضى ليلته في الخلاء. الشيخ محب ضرب الشيخ عبد الستار. قلب الشيخ عبد الستار فقع من الغم. دماغه طق. عدة عيارات على سطح منزله أعلنت الوفاة. ولولت العرجا. ولولت شقيقته. اجتمعت حول البيت نساء كثيرات. هرع الشيخ محب والبرزغل ورجال كثيرون. انتحى الشيخ محب بديوب وهمس في أذنه:

– إياك أن تلحق به. أرأيت عاقبة من يترك؟

فرّ ديوب جزعاً، وعيناه عالقتان على وجه الشيخ محب: أتموت أنت

أيضاً يا ديوب؟ سلمت بكل شيء، حتى لا تسلك هذه المسالك، فما النفع؟ أنت أحق بالموت يا شيخ محب. ضرب ديوب بباطن كفه عل جبينه. ركض إلى الشيخ محب. تمعن في لثة الشيخ السوداء التي فضحتها تكشيرة واسعة. همس ديوب حاقداً:

– إياك أن تلحق به يا شيخي. سوف تفتقدكما جرماتي. البرزغل لن يجعلني أموت. ما رأيك إذا فتحوا تحقيقاً في موت الشيخ عبد الستار؟

اربدّتْ سحنة الشيخ محب. عجز عن ضبط رؤوس أنامله. أطبق شفتيه كأنه لن ينبس أبداً: تحقيق ماذا يا مختار؟ علمك الاحتلال جيداً. ما علاقتي بموت شيخك؟ ستجعلني قاتلاً لأنني لم أتبعك!؟ التحقيق ينبغي أن يفتح معك أنت. التحقيق سيفتح حتماً فلا تتعجل. البرزغل الذي تحمده ألمح لي أمس. آه يا مختار اليهود! هل نسيت نفسك؟ لئن سكتوا عنك أمس أو اليوم فلن يسكتوا الدهر كله. أما أنا فسترى يا ديوب من أنا. سترى الشيخ محب إمام جرماتي الأوحد وحافظ دينها، أيام الاحتلال وبعد الاحتلال، تباً لك يا عاقر الناقة.

افترق الرجلان يتواعدان. غيبهما الحشد الذي ملأ بيت الشيخ عبد الستار. والحاكورة الصغيرة أمامه. غسل الشيخ محب جسد الميت بيديه. فرش له الريحان. أوقد البخور. تلمس الماء مراراً، لهج بدعاءات متتالية حارة. غطى على العويل واللغط بوق سيارة لم تسمع جرماتي أعلى منه. تخلخل الحشد. دارت الأعناق في كل اتجاه. ظهرت سيارة ستيشن زرقاء زاهية فوق جرن النبوعة. همّ ديوب بالانسحاب من الحشد. النازحون لا يعودون بمثل هذه السيارة. وقعت عيناه على البرزغل. ماذا سيقول البرزغل لو كانت السيارة لأحد المسؤولين؟ ديوب يلاقي السيارة. هل سلمت الختم يا ديوب حتى تظل تستقبل وتودع؟ من أنت حتى تفعل؟ من يفعل في جرماتي غير المختار؟ هل يعقل أن يكونوا محققين يا برزغل؟ هل يصدق الشيخ محب؟ لماذا ألمحت له وليس لي؟ إلى متى ستظل يا ديوب جباناً؟ إنْ لم تتوق هذه الضربة جيداً، فستر ديك. إلى الساحة

إذن. إلى السيارة، الى كل سيارة تحل في جرماتي، اليوم، غداً بعد غد، حتى يهدأ البلبال.

تجاوز ديوب البرزغل، تجاوز الساحة، غذّ خطاه نحو الجرن. لماذا لم تظهر السيارة بعد؟ لمح تامر وساميلا يروحان ويجيئان أمام بيتهما. نبقت السيارة من تحت سنديانات الشيخ ابراهيم: أين كنت أيتها الجنية. لم تر عينه في جرماتي ولا في سواها سيارة أكثر بهاء. توقفت السيارة بعد أن تجاوزته بقليل. خاطبه أول الذين ترجلوا منها باستعلاء:

– أهذه جرماتي؟ أين المختار يا عم؟

أنا عمك يا ابن الكلبة؟ تبدو أكبر مني بعشر سنين. وهذا الأنف المعقوف لماذا؟ غرباء يلبسون بزات نظيفة وجميلة، نظارات تستر عيون بعضهم، حقائب صغيرة وسلاسل في الأيدي. لِمَ هذا كله يا ديوب؟ لِمَ هذا كله يا شيخ محب؟ لِمَ هذا كله يا برزغل؟ المختار مشغول يا سادة في جنازة، أوامركم؟ أستطيع أن أخدمكم بما تشاءون. ما اسمك يا سيد؟ خادمك الأمين ديوب. آه لو ظفرت بأنفك في البرية! تحلق الرجال حول ديوب. لم تشبع عيناه من وجوههم الصقيلة اللامعة. نحن وفد صحفي، نريد أن نرى جرماتي المحررة، نصورها، نكتب عنها. ابدأوا بتصوير ديوب إذن. ديوب يصغي لأسئلتكم، يتلقف تعليماتكم، يبلع ريقه، يستعيد رشده، يتأنى في الجواب، يتفنن: هذه هي المئذنة المقصوفة. الساحة خالية تماماً. دكان بيزو مغلق. صورة تذكارية للأنف المعقوف فوق بقايا المئذنة. همس ديوب مذكراً بحرمة المكان. توجه رئيس الوفد إلى المدرسة. تقرى نهايات بعض الأحرف العبرية الممسوحة، نادى على أعضاء الوفد. طار الأعضاء كالأطفال، صوروا جدران المدرسة عشرين مرة، حمد ديوب ربه، لعن الشيخ محب، الشيخ عبد الستار، البرزغل. أقسم أنه مسح العبارات عن الجدران بيديه. شرح لهم كيف كان الاسرائيليون يستخدمون المدرسة: لم أكن قد أكملت يومي الثاني في المخترة. لم يكونوا قد أكملوا شهرهم الأول في جرماتي. كان الملازم اسحق لطيفاً، الشهادة لله. يا ديوب نريد خمسة رجال وبعض الأدوات.

هذا الجدار لا حاجة له، هذه النافذة سأجعلها باباً. تلك النافذة سوف أسدها. لماذا يا سيدي الملازم؟ هذه مدرسة وسيادتك وعدتني بعودة التلاميذ إليها قريباً. يا عجباً كيف ينقلب ابن آدم وحشاً بين غمضة عين وأختها!! وعدتك يا مختار، ما وعدتك، هذا ليس شغلك. لا تجعلني أندم على تسليمك الختم. لا تنزفزني بكل صغيرة وكبيرة. ليعدْ تلاميذك إلى فروج أمهاتهم. كلمة ثانية وأهدم المدرسة فوق رأسك. كانت طباع الملازم اسحاق مثل طقس آذار، ساعة مثل العسل وساعة مثل السليمانية. لكن مَنْ مِنْ جرماتي سيقبل أن يأتي معي؟ يا سيدي لا زالت إبرهم طرية في وجهي وفي قفاي. كأني قتلت الحسين يوم استلمت الختم الجديد. يا بهايم أليس هذا أفضل لكم؟ هل تظنون أن سورية عائدة غداً أو بعد غد؟ والله العظيم لم أكن أظن أنها تعود على أيام أولاد أولادي. أي شيء من يوم ما طلعت علي الدنيا يا ديوب راح ثم عاد؟ عظّم الله أجرك يا شيخ محب. لولاك لحلّت بجرماتي في ذلك اليوم داهية. لن أنسى كيف دفعت بابنك على رأس القوم، ثم لحقوا به: واحد، اثنين، ثلاثة..

لم تزل مفاتيح المدرسة في جيب ديوب، لم يسأله عنها أحد. سلمه إياها الملازم اسحاق عشية الانسحاب بحضور ضابط هندي. فتح الأبواب جميعاً. فتح الصحفيون عيونهم وأنوفهم. أين آثارهم يا ديوب؟ هذه غرفة الملازم اسحاق. هنا كنت أقف ساعة حتى يقول لي: اجلس. هنا لعبنا برتية طاولة مرة واحدة. هنا صفعني كفاً لن أنساه حتى يأكل عظامي الدود. هذه غرفة ايليا. الرقيب ايليا قبل أن تحمرّ مآقيه. كان ينوب عن الملازم في غيابه. ايليا أبو صلعة. أبو سمية أطلق عليه اللقب فحفظته جرماتي. لم يترك أبو سمية أحداً منهم بدون لقب. الملازم اسحاق الطحش. ايليا أبو صلعة، حتى إلى ذقني وصل لسانه، مرحوم على كل حال. الرحمة على الميت حق. حتى إلى ذقن الشيخ محب وصل. أرأيت إلى أين قادك شيطانك ياأبو سمية؟ لو قصرت لسانك، أما كنت بيننا الآن مثل كل عباد الله؟ من التي ترملت غير حرمتك؟ من الذي تيتم غير أولادك؟ ماذا جنيت بعد كل هذا؟ ألم تتسبب لجرماتي

بشتاء لا قبله ولا بعده؟ ها قد جاء الانسحاب دون الحاجة إلى لوصتك كلها. قلنا لك تعقّلْ وانتظر الفرج، فما سمعت. وهذا يا أساتذة كان الحبس. فإذنْ غرف المدرسة ضيقة يا سيدي. هكذا صار الحبس أكبر. صحيح جرماتي فارقت الكثير، لكن الحبس ضروري من أجل الباقين. لم يعد للغرف لزوم في المدرسة يا مختار. حبس، مستودع، مهجع، لا تكفي الغرفة ولا الغرفتان، واحدة فقط لي والباقي.. أوه يا سيدي! أفكارك دائماً ساحرة. قد نضطر إلى حبس جرماتي كلها. دهاة وحق الله! تحسبون حساب كل كبيرة وصغيرة! من مدرسة إلى مخفر، إلى حبس، إلى ماذا يا سيدي؟

تلمس رئيس الوفد بكفه آثار الشحم الذي خلفته صناديق السلاح في المستودع. قدم له ديوب محرمة قماشية قذرة. ران على الآخرين وجوم مطبق. ارتسمت فوق محيا كل منهم أمارات الانفعال الشديد. انتقل إلى ديوب بالعدوى ما بهم. قرّب أحدهم أنفه متشمماً السواد الذي خلفوه في إحدى الزوايا. علت تكبيرات مختلطة قادمة من ناحية المسجد. أجفل ديوب وخاطب الوفد:

- الجنازة التي ذكرتها لكم. تفضلوا أريكم أماكن أخرى.

وعجّل في الفرار. لاحقه صوت رئيس الوفد:

- نريد أن نتحدث للناس.

أسرع ديوب:

- بعد الجنازة يا أستاذ، بعد الجنازة.

انتظر موافقته كحكم القضاء. تقدمهم إلى بستان تامر صبح. مرحومة يا كرزات تامر. كان رأسه مرفوعاً بها، يناطح السماء. كانت ساميلا تقضي ليلها ونهارها في الكرم. قال: القرية بحاجة إلى ساحة عامة كبيرة. نعم نعم يا ملازم اسحاق. ساحة المسجد كافية ووافية. هذا ليس شغلك يا مختار. ملعون أبو المختار، ما شغله إذن يا سيدي؟ بلدوزر هنا وبلدوزر هناك. احتشدت جرماتي ترقب ذلك اليوم العظيم. أقسم

الملازم اسحاق بيوم السبت العظيم: سوف أحول كل البيوت التي تركها أصحابها إلى ساحات. جرماتي إذن ليست بحاجة إلى ساحة عامة كبيرة. لسانك يطول يا مختار. إذا لم تقصره سأحول جرماتي كلها إلى ساحات. ألا تسمع بما يجري في الهضبة[1]؟ بلى يا سيدي، والله أسمع أخبار الهضبة وأخبار الضفة[2]. اللهم أجرْنا من الأعظم. قلنا الحمد لله أنعم علينا بضابط في عمر أولادنا، طيب القلب، يمكن للمرء أن يأخذ منه ويعطي، فإذا بنا أسوأ من ذاق طعم الاحتلال. حسدتنا الدلبة، الخسفات، حتى الحورانة. بتنا نحسد الذين في فلسطين. بكى الناس. إي والله ياأساتذة بكوا كلهم، من أكبرهم إلى صغيرهم ما عداي. صحيح أن البكاء للنسوان، لكني تمنيت يومئذ أن تدمع عيني مثل بقية الناس. قهقه الملازم اسحاق. قهقه سائق البلدوزر. ضحك الرقيب ايليا وقلد النساء. جرماتي تبكي وهم..

عجز ديوب عن حبس دمعته، فانتحى يجففها بمحرمته القذرة. اقترب الصحفيون من البيت. تامر وساميلا منهمكان في الشغل. نادى ديوب:

– ألست في الجنازة إذن يا تامر؟

توقف تامر، توقفت ساميلا، قالا معاً:

– رحمة الله عليه.

أردفت ساميلا:

– الشغل فوق رأسنا وفي جرماتي من يدفنه غيرنا.

تعوذ ديوب من لسان ساميلا: مبرد جاهز على الدوام. أدار لسانها عيون الصحفيين، كاميراتهم: امرأة هذه أم رجل؟ قامة أطول من قاماتهم جميعاً، صدر مثل الرابية، كأنه يكتنز الحليب الذي لم يقيض له طفل يرضعه. أرضعيه لتامر أرضعيه. شعر أسود، كثيف، قصير. ظهر أكثر استواء من قضيب الخيزران. كف خشنة أعرض من وجه تامر. رقبة

---

(1) هضبة الجولان.

(2) الضفة الغربية.

طويلة، نقية، صلبة، كأنها مقدودة من المرمر. كيف تعلوها يا ابن صبح؟ من أين إلى أين يمتد جسمك فوقها؟ كل أولاد صبح قصار. لا تكاد قامتك تعلو كتفها. كيف تلتحم سرتك بسرتها؟ سمنتك تفوق كنوزها. وهذا القصر قصركما؟ الدمار جاثم فيه أكثر من البستان، المئذنة، المدرسة، التراب، الخشب، العيدان، الأحجارالتي ليس لها شكل، وعدّة تكفي لعشرة عمال، رفوش، فؤوس، منشار يدوي صغير، بلطة، منشار كبير، مطرقة ضخمة، قدوم، بنسة، وتامر وساميلا ورشة تعمير، وقال رئيس الوفد:

– لماذا هذا العذاب كله يا أخ؟ الدولة ستعمر لكم بيوتاً جميلة أفضل مما فقدتم.

سألت ساميلا بغلطة:

– متى يا أستاذ؟

قال تامر غير مبال:

– سمعنا بهذا الكلام يوم الانسحاب الأول، لكننا نريد ما يستر نومتنا الليلة عن العيون.

وضحك. التفت رئيس الوفد إلى ساميلا، وجهد في الملاطفة:

– صحيح لم يحددوا الموعد بعد، لكن صدقيني. سمعت ذلك يتردد في كل مكان هناك. ثم: الدنيا ما زالت صيفاً.

أمّن على كلامه الصحفيون، وأردف أحدهم متشدقاً:

– بعد التحرير يأتي التعمير.

التفت إليه الرئيس معجباً. قال تامر:

– علينا إذن أن ننتظر في العراء. تعالي يا ساميلا. لا تؤاخذونا يا أساتذة.

وانصرف عنهم إلى ما كان فيه قبل وصولهم.

كان قد ظهر في بعض المواقع أساس البيت القديم. دار الوفد حول آثار البيت. وقف أحدهم فوق الموقد الذي عمرته ساميلا. وضع قدماً

على كلٍّ من حجري الموقد. بدا وكأنه يبول. غضّتساميلا ممتعضة. غادر الوفد متحسراً إلى الشارع، يتقدمهم ديوب. شغل حديث التحرير والتعمير مخيلة ديوب: هل كان من الأفضل لو أنني جعلت الملازم اسحاق يهدم جزءاً من بيتي؟ هل أستطيع أن أفعل ذلك بنفسي الآن؟ تناهت إليه أصوات الرجال والنساء والأطفال في المقبرة القريبة. تذكر الشيخ محب، تذكر البرزغل، انتفض كأن أفعى قد لدغته. حثّ أعضاء الوفد على السير في الجهة المعاكسة مغرياً بمعالم جرماتي، وهرول.

(11)

لم تكد تفرغ جرماتي من دفن الشيخ عبد الستار حتى غادرتها الستيشن، يشيعها فؤاد ديوب الراضي. قرب جرن النبوعة، لاقت الستيشن تراكتور السكماني في سفرته الثانية. تأفف أعضاء الوفد ولعنوا جرماتي. كادت الستيشن أن تهوي في الجرن. طار الأولاد أمام التراكتور معلنين وصول أم سمية وسمية وبقية العائلة. كان خبر قدومها قد وصل مع التراكتور في السفرة الأولى. تدافع الناس من المقبرة إلى الساحة. ضاع التراكتور والعائدون وأم سمية والأولاد. جمع لم تشهده جرماتي من قبل. الشيخ محب في رأس القوم. ينفتح فمه العريض عن اللثة الفحمية: كيف حالك يا أم سمية بعد هالغياب؟ البرزغل يفتح ذراعيه، يوحد الله، يحمده: ها قد عاد الشمل فالتأم يا أم سمية. سمية ترمي الشيخ والمختار بطرفي عينيها: من أين هذا كله يا سادة؟ الشيخ محب يصلي على سيدنا محمد: سمية كبرت في سنة قدر ما كبرت طوال عمرها؟ الله يسعدك يا بنتي يابن الحلال: سمية تفرّ من كف الشيخ محب الممدودة إلى رأسها. ذراعا البرزغل تنفتحان من جديد: تعالي ياسمية يا ابنتي تعالي. لو عاش المرحوم حتى رأى صباك! أين أنتم يا شباب جرماتي؟ سمية قصت شعرها مثل بنات الشام، مثل الصبيان،

سمية فيها من نحول أبيها، فيها من سواد عينيه الحارق، من طوله الرمحي، فيها من جبين أمها عرضه، من وجناتها القسوة، من أنفها، من فمها، سمية كيف جمعت أم سمية مع أبي سمية؟! وسمية تكاد تنفجر: أنقذوني من هذا الحب. طال الحصار بين البرزغل والشيخ محب. وزاهي يصرخ أخيراً: كيف حالك ياسمية؟ يمد ذراعيه، يخترق كفه صدري الشيخ والبرزغل. تنتفض سمية ملاقية. يعود الحشد فيفصلهما. تنادي سمية: كيف حالك يا زاهي؟ يقترب زاهي في موجة ثانية: أين أمك ياسمية؟ يتفحص زاهي في ومضة محياها. طوال عمرها سمية غرة بنات جرماتي، لكن كيف صارت في شهر اثنين ثلاثة؟ كم غابت عنك يا زاهي هذه الطفلة الصبية؟ لن تستطيع أن تتكلم أمام هؤلاء الناس جميعاً. ويضحك فجأة ملء صدره، تضحك سمية، أين صار الشيخ محب؟ أين صار البرزغل؟ أين صارت أم سمية؟ الحشد يتوجه شمالاً، يملأ الشارع الإسرائيلي، تلوح في المقدمة عمامة الشيخ محب، يلوح المنديل الذي يغطي رأس أم سمية. يسير الرجال والأطفال والنساء في ركب طويل. يعبرون ما كان يوماً ما بيت أبي سمية. لا تطرف عين أم سمية نحوه. أولادها يلوون أعناقهم. سمية تزداد اضطراباً واستسلاماً للحشد. إلى أين نحن ذاهبون؟ يتجاوز الركب بيت الرقيب غالي الذي بدا مكوناً من قسمين متناقضين. بيت العتال أبو صلاح لا زال خاوياً. امتد الشارع خارج البيوت، والسكة تضيق، تزداد وعورة، ويتضاعف بفعل ذلك الركب، وفي الأرض الملأى بالأحجار الصغيرة، الأشواك، الحفر الكثيرة التي تركتها القنابل السورية فوق السكة. هناك كانت الدبابة الاسرائيلية ترابط. لا تزال الحفر طرية، كأنها واقعة منذ يومين. مرّ الركب بمربض الدبابة. ملأ الأولاد الحفرة الكبيرة التي كان ينبق من مقدمتها مدفع الدبابة. قفز عدد منهم إلى الحفرة الثانية التي كانت مستودعاً. فارق الركب السكة يميناً. صعد إلى التلة التي دفن فيها أبو سمية. لم يسمح الملازم اسحاق بدفنه في المقبرة. أراد الأولاد أن يتابعوا صعودهم في التلة. ردعتهم أصوات الكبار. في قمة التلة تقوم قطعة صغيرة من الأرض،

مسورة وعليها يافطة عبرية. حذر ضباط البوليس الدولي يوم الانسحاب من اقتراب بشر أو حيوان من تلك القطعة. الألغام لم تنظف بعد. الأولاد من يردعهم؟ تسلقوا في ليلة الانسحاب الأولى إلى التلة، داروا بالقطعة الملغومة، لمسوا الأسلاك الشائكة، تحسسوا اليافطة، وضحكوا من وعيد ديوب. تحلق الناس حول القبر. قرأ الشيخ محب الفاتحة. فتحت أم سمية شفتيها. سلمت على الناس جميعاً: المختار، الإمام، ابن الإمام، ابن جوجيه، تامر، ديوب، بربهان، بشير، رافع، ساميلا، زاهي، ثم تقدمتهم عائدة يحيط بها زاهي، تامر، سمية، غالي، بربهان، ولم يعد الشيخ محب يسير في المقدمة، ولا البرزغل.

أفضى بها درب التلة الفرعي من جديد إلى الشارع الاسرائيلي. انعطف يساراً. طالعها بيت بدور العتال. حاذى الركب المتناقص بيت غالي. أمسكت بربهان بيمين أم سمية، وأمسك غالي بيسارها. هذا بيتك يا أم سمية إلى أين تذهبين؟ انشقت الأرض عن البرزغل: ينزلون في بيت المختار يا غالي. انشقت الأرض عن الشيخ محب: ينزلون في بيتي حتى يشاء الله أمراً كان مفعولاً. اللهم صل عليك يا حبيب الله. علت الأصوات من سائر الأجناب. كل بيوت جرماتي بيتك يا أم سمية. انفرجت شفتا أم سمية عن بسمة ممتنة. لمعت أسنانها التي كانت مضرب المثل بين صبايا جرماتي، قبل عشرين سنة. تابعت سيرها حتى أطلّ ما كان يوماً بيتها. انصلبت عنق سمية على الأرض الممهودة. أشرقت عينا أم سمية بدمعة وضحكة. اندفع الأولاد يعدون في الأرض. ارتمت سمية في وسط الأرض فوق أثر واهٍ لجنازير البلدوزر. جلست أم سمية على التراب المسحوق تائهةً. انفرطت الدمعات تكوي، دمعات صافية، صلبة، تنحدر بأناة، وصاح بشير القصاب:

– ياالله يا أختي يا أم سمية، هذا لا يرضي المرحوم.

قرفص تامر قبالتها وقال:

– يا أختي ليس في البيت غير ساميلا وأنت عارفة. بيت جديد يليق بامرأة مثلك.

اتجه زاهي نحو سمية. أبعد أخواتها من حولها، هز كتفيها آمراً:
- انهضي وساعديني على أمك.
رفعت رأسها مزيحة بيدها المتربة خصلات شعرها القصيرة. سطعت الجبهة العريضة، وقالت حاسمة:
- لن تغادر هذا المكان. منذ تركنا جرماتي، وهي تحلف أنها ستعود وتنام في البيت مهما فعلوا به.
قال زاهي لائباً:
- اعقلي ياسمية وعقليها.
نهضت سمية قائلة:
- ألا تعرفها؟
قال زاهي مغالباً ضيقه:
- يا سمية يا عيوني، منذ وصل الخبر رتبنا كل شيء، النوم، غير النوم، فقط دعونا نمش من هنا. انظري الناس حولنا.
وأمسك بساعدها دافعاً بها نحو أمها. أبصرا رافعاً متربعاً إلى جوار الأم. قال زاهي:
- سوف تنزلون في بيت بشير القصاب.
التفت رافع إليهما، هبّ واقفاً ونادى على زاهي:
- أسرعْ واسبقنا مع سمية والأولاد.
هلّل زاهي، ورفع ذراع سمية عالياً حتى آلمها. شدت أصابعها متملصة صائحة:
- هيه، ماذا حلّ بك؟
أردف رافع، وكانا قد حاذياه:
- أسرعْ يا زاهي، ثم عدْ مع الآخرين. سوف ننصب خيمة هنا لأم سمية وحدها. لا يقنعها غير ربك بذاته.

(12)

ابن جوجيه، شقيق ساميلا، عدد من اليافعين، رافع، أبوه، زاهي، نصبوا في دقائق خيمة صفراء صغيرة. أحضروا عُدَداً كثيرة: الفئوس، الرفوش، القفف، العربة الصغيرة، وبدأوا الحفر. أم سمية في فرجة الخيمة ساهمة. لم تسأل عما ينوون: أين أنت يا أبو سمية. من يقدر أن يضيع تعبك؟ رافع لازال حاداً كما تعرف. شعر رأسه غدا أطول خلال الشهور التي غبناها عن جرماتي. الآن تستطيع يا رافع أن تباهي زاهي بطول شعرك. لكن زاهي غدا أنحف منك، بل هو أنحفكم جميعاً! ما بك يا زاهي؟ ألا تأكل؟ ألا تنام؟ لم يبق على عظامك غير الجلد! لا زال زاهي كما تعرف يا ابن العم، باله أطول من قامته المديدة. لكن طول باله لم ينصره اليوم عليّ. ياويلي ألم أعاهدك؟ هاأنذا أعود إلى بيتنا يا ابن العم. ماذا تستطيع البلدوزرات أن تفعل؟ جرماتي خرجت تسلّم عليك، حتى بيزو الذي كان يسميك مجرماً كما يسمي ابن أخيه، الشيخ محب، البرزغل، ديوب الذي بدا أذل من كلب، بشير يقسم بحياتك: فكرنا قبل الانسحاب بالبيت. لن يقوم البيت إلا في مكانه. باغتتهم عودتي المبكرة، وزاهي يقول إنهم كانوا يودون أن يفاجئوني، يفاجؤوك، يعمروا البيت، يقولوا لنا: تفضلوا. اختفت لثغة زاهي التي خلفتها قبضة الملازم اسحاق بعدك في أسنانه. خلّفت رجالاً يحفظون جرماتي يا أبو سمية. أبو رافع يضرب الفأس ضربته الخالدة منذ كان فتى يلهو على طريق الجرن. غالي يرتدي بذلته العسكرية على الدوام. أراهن إنْ كانوا لن يعيدوا تشييد البيت في ثلاثة أيام. أراهن إنْ كانوا لن يعمروا جرماتي جديدة في ثلاثة شهور. كم أقلقني انكفاؤهم في تلك الأيام المريرة، بعد رحيلك عنا؟ خشيت أن تفلت جرماتي منهم إلى الأبد؟ قالوا سنخلد ريثما تصبح أحوالها أفضل. لكن الملازم اسحاق داهية، وديوب كان أفعى، وجرماتي ملدوغة، والآن القلق يولّي، وزاهي يقول: إنهم عادوا إلى

الناس منذ شاع خبر الانسحاب. أرادوا أن يتوزعوا على البيوت المخربة. النازحون بدأوا يعودون، البيوت بلا أسطحة، بلا جدران، بلا أبواب، بلا نوافذ، وجرماتي تلبي، أين شماتة بيزو بابن أخيه؟ أين يمكن أن تعيش أم سمية إلا في جرماتي؟ أين يمكن أن ينشأ الأولاد إلا في حضن أبيهم؟ كنت أعدّ الأيام بعدما هجروني يوماً يوماً، ساعة ساعة، دقيقة دقيقة، لابد أن أعود إلى جرماتي، لابد أن يعود الأولاد إلى أبيهم، كنت أهيىء للعودة بلا انسحاب، فكيف وقد...

(13)

برحتْ الخيمة متقدمة نحو الرجال. جالتْ عيناها في الخطوط المحفورة. رسمتْ الفؤوس حدود البيت الذي يعتزمون تشييده. لم تجد أم سمية ما تعين به الرجال. أيقنتْ أن المخطط كان جاهزاً قبل قدومها. نادت غالي مذكرة ببربهان. رجتْ الآخرين أن يعينوها عليه. تذرعتْ بعسكريته، مأذونيته، بيته المدمر، بربهان الوحيدة. أقسم غالي بحياة أبي سمية أنه سيكمل نهاره مع الجماعة، وسأل منزعجاً:

– لمن سأترك حصتي وحصة بربهان في هذا البيت يا امرأة أخي؟

كان أبو سمية يذكرك يا غالي كل مساء، طوال أيام الحرب. كان يقول: في الحرب الماضية لم تحارب جرماتي. لم يكن من أبنائها على الجبهة غير ابن الشيخ محب وابن البرزغل. طوى كل منهما قمبازه خلفه وقال: يا ساتر استر. واحد خجل من عورته وسكن الشام، وواحد أرخى ذقنه متيمناً بأبيه. أما تامر، شقيق ساميلا، فضل. وعسكر جرماتي الباقين، فمن يعلم أين كانوا موزعين؟ كان يقول: هذه المرة الحرب حرب، لا لعب، رغم أن الدبابات وصلت إلى جرماتي. رغم أنهم أوقفوا القتال. آخ يا غالي! آخ يا أحبائي! لم يطق المرحوم أن يرى تلك الدبابة على مطل جرماتي، مدفعها فوق رؤوسنا، عسكرها بيننا،

الملازم اسحاق على سطح المدرسة، العلم الاسرائيلي، الرقيب ايليا. كان يعود في الليل ويقول: غير معقول يا أم سمية. إلى متى سيظلون هنا؟ يتحرشون بالصبايا ويهزأون بنا؟ عطلوا أولادنا عن المدرسة. حرمونا زراعة أرضنا. من أين سيأتي الموسم القادم؟ ويوم مدوا أيديهم إلى كرزات تامر صبح لم تغف عيناه. قال: هذه المرة دور تامر صبح، والمرة القادمة دور غيره، حتى لا يبقى في جرماتي نافخ نار. نده على تامر معاتباً: لماذا رحلت يا ابن صبح؟ قال زاهي: أجل يا أبو سمية، حان الحين. من كان يقول يا زاهي: سأقتل بيزو اشهدي يا بلد؟ بيزو طمر رأس ابن أخيه في الوحل. فتح الدكان للملازم اسحاق ورجال الملازم اسحاق. يشربون عنده النبيذ الآتي من كروم الضفة، يلعبون الورق، الطاولة، يتصيدون الذاهبة إلى النبوعة والراجعة من النبوعة. اقطع رأس الحية ثم ألحق به الذنب. حان الحين يا زاهي، حان الحين يا أبو سمية، ليس في جرماتي سلاح، من يسرق السلاح؟ من يهرّب السلاح؟ وقبل أن تفطن الدوريات الناشطة كان أبو سمية قد..

(14)

مالت الشمس إلى الغروب. عادت أم سمية إلى الخيمة. وقفت في فرجتها تستقبل النسمات الناعشة. انتصبت قبالة العين تلال جرماتي المتعانقة. التلال مغطاة بالكروم. الأرض التي كانت تخضر كل عام ظهرت مفضوحة في عريها. على قمة التلة الكبرى ظهرت القطعة الملغومة كلطعة في الجبين. انحدرت عينا أم سمية من قمة التلة إلى خاصرتها اليمنى. قبر أبو سمية يتعاظم، يملأ جنبات الكون. لم تكن أصداء الرصاص قد ضاعت بعد في أرجاء جرماتي عندما داهموا البيت. لكأنهم كانوا على ميعاد. أبو سمية ليس في البيت. تعالي إذن، هاتي أولادك. إلى أين يا رقيب ايليا؟ إلى المخفر ياشرموطة. تعالي

وهاتيهم حتى يأتي بنفسه إلى المخفر. لم تقتلك رصاصاته إذن يا ايليا. اخرسي يا كلبة. الرصاصة القادمة في قلبك. أنت تعترفين إذن؟ وجاء صوتك يا أبو سمية. متى عدت إلى البيت؟ أين كنت تختبيء؟ اتركها يا ايليا قبل أن تقفع الرصاصة جمجمتك. سوف أقتلها وأقتل الأولاد قبل أن تنطلق رصاصتك. قلت لك: اتركها وسأسلم نفسي. اتركها. ارمِ سلاحك إذن يا بطل. اسبقني إلى المخفر. سألحق بك. ماذا يضمن لي يابطل؟ قصّرْ لسانك ياايليا. أنت تعرف أنني أصدق من نبيك. المرأة والأولاد في حوزتك، إذا لم أكن في المخفر بعد عشر دقائق. هيّا. كيف تسلمهم نفسك ياأبو سمية؟ هل أتركك إذن بين يديه؟ سوف يقتلونك يا ويلي اهرب. دعيني وإياهم، ساعديني عليه يا جرماتي. مشيت إلى حتفك بنفسك، ملأت دورياتهم جرماتي شبراً شبراً، أين ذهب زاهي بالسلاح؟ أين ذهب رافع بصناديق الرصاص؟ إذا وقعوا على أثر فستقوم القيامة. أين أخذتم أبا سمية يا سفاحين؟ سوف تحاكمونه إذن. وقتل زاهي عسكريين دفعة واحدة. زاهي أو رافع أو ثالث أو رابع، لا أحد يعلم. لا أثر. وضربة ثالثة، رابعة، وديوب يتباكى: أعدموه في مقر القيادة، في الهضبة. سوف يأتي دورك أيضاً. اتركي جرماتي، لعل نحسك ونحس زوجك أن يتركها معكم. قلبي دليلي يا أبو سمية. ديوب هو الذي قال لهم: رحّلوها. ديوب هو الذي قال لهم: اهدموا بيوت الغائبين، حتى يتعظ الحاضرون. جاء ديوب مع الملازم اسحاق: اخرجوا من البيت فوراً. ماذا تريدون يا أبالسة؟ البلدوزر يهدر خلفهم. رشاشاتهم حول أعناقنا. سمية انزرعت في البيت. نتفت شوارب المختار. بصقت في وجه ايليا. رفع البلدوزر بشفراته البيت: دفعة، الثانية، الثالثة، وانهار البيت واستغرق الرجال في الشغل. همّتْ أم سمية في حثهم على الاستراحة، لكنها سكتت، إذ رأت سمية وشقيقة رافع قادمتين، تحملان صرتين وجرة. وفجأة صاحت سمية:

– انظروا ماذا أحضرنا لكم.

(15)

أم سمية، ابن جوجية، بربهان، البرزغل، الإمام المرحوم، تامر، ساميلا، اللبنانية[1]، العسكر[2]، إنهم يعودون، ولم يعد التراكتور وحده يستأثر بالسكة. وصلت جيب لاندروفر وثلاث سيارات صغيرة. الأستاذ قبلان يتصدر أولاها، السيارتان التاليتان محتشدتان بالسكامنة: الست خالدية، فاهية، السكماني نفسه، رجال كثيرون، جرماتي تفور فوراناً، من رأى جبين الأستاذ الناصع؟ جبين مدهون بالزيت، يلمع مثل الزجاج تحت شمس جرماتي المذهبة!! من رأى شعر فاهية الذي يشبه شعور الصبيان، تظهر منه الرقبة، الأذنان، بنطالها الضيق الذي تكاد اليتها تفرّ منه، قميصها الذي يفضح البشرة الحليبية، السوتيان، الست خالدية، بنت الأربعين تباهي العشرين، والبرزغل يجتمع بالشيخ محب، يتشاوران فيما يفاتحان به الأستاذ من شئون جرماتي. الشيخ محب يوحد الله، يتعجب مما آلت إليه كلمة الأستاذ! لا تنزل الكلمة على أرض، بوله يحرق، وهو من هو؟ ابن جرماتي الذي لا يفوق زاهي علماً، أخوه من أبيه أجير في لبنان، عمر، مثله مثل أي جرمتلي. عظام أبيه لا تزال في مقبرة الشيخ ابراهيم. أعمامه اشتروا نصف كروم السكامنة، أخواته موزعات في بلاد العرب، جرماتي تهرع لاستقباله. والبرزغل ينهر البرزغلة: هيأي البيت، الطاولة، الأستاذ قد يشرف بيت المختار. السكامنة يقفون على الأطلال. السكماني يستذكر المرحومة الست منيرة. يضبطه ظل الست خالدية الواقفة إلى يساره. كانت المرحومة ست الكل، مدبرة الكبائر والصغائر في عمارة السكماني، أملاكه، قلبه. كانت الست خالدية سراً من أسراره الشامية الكثيرة. فاهية في التاسعة أو العاشرة ولا تزال الست خالدية سراً، حتى أطلق نايف الرصاص. ضاق الخناق في جرماتي على السكامنة. حضن الشام ألين. يا سكماني حضن الشام أوسع، العمارة خاوية على

(1، 2) المعني بعض أبناء جرماتي ممن يعملون في لبنان أو في الجيش السوري.

عروشها، ملعونة يا جرماتي. منذ برحك السكامنة حلّت فيك اللعنة، الدمار أتى على المستودعات، القصف الذي خلفته حرب تشرين[1] حرب آذار نيسان أيار[2]، وفاهية غريبة، فزعة، ليس لها في جرماتي أية ذكرى. لا تعرف من شبانها غير رافع الذي حضر مرة مع آخرين إلى بيت للسكماني: الشام، المرحومة، عشر سنين، عشرين، سلوم، نايف، ألغاز تافهة. ورافع في بوفيه الجامعة مع رهط من الشباب، وجرماتي في سيماء كل منهم، والسكماني ينطق بصعوبة في أمس قريب:

- سوف أتبرع بكل ما بقي في المستودعات للعائدين، كي يستعينوا به على بلواهم.

قالت الست خالدية:

- هل تريد أن تفتح مع جرماتي صفحة جديدة بعد هذه الحرب؟

قال السكماني:

- بل أريد أن أصفي كل شيء. سوف أتبرع بالبيت للحكومة، سوف أعرض البقية الباقية على الأستاذ قبلان، بأي ثمن سوف أبيع.

لم تأبه الست خالدية، تقدمت تستطلع العمارة: صالونات عارية، ثقيلة الوحشة وفارغة. أقسم السكماني أن البيت قد نهب. سألت الست خالدية باسترخاء:

- من فعلها؟ الاسرائيليون أم أولاء؟

ورمت جرماتي برموشها. قال السكماني:

- ماذا ستفعل الحكومة ببيت كبير مثل هذا، في بلدة صغيرة مثل هذه؟

قالت الست:

- لماذا تتبرع به إذن؟ بعه بأي ثمن.

ضحك السكماني وهمس في شحمة أذنها:

---

(1) 1973

(2) 1974

- من أجل الشام يا ست الكل!

داعبت الست ياقة السكماني غامزة:

- تعجبت من أين هذه النخوة كلها! أورثت جرماتي للأستاذ قبلان أم للحكومة؟

قاطعها:

- وأخذت الشام. أخذت الست خالدية.

وضحك طويلاً. قالت:

- لولا أنك ذكرتني لقلت: شاركت في الشام، الشام من يأخذها وحده؟

وأخفت ضحكة فاجرة.

ترجّل الأستاذ في الساحة. فتح السائق الباب. علا هرج المستقبلين. سلّم الرجال على الأستاذ. دعا البرزغل الأستاذ إلى المضافة. أشار الأستاذ إلى المدرسة. قال: إنه مشتاق لها. جهد رافع كي يحاذي الأستاذ، وهو يبيّت في نفسه أمراً، لم يجرؤ على أن يفاتح به أياً من رفاقه الآخرين: الى متى يبقى نايف في السجن؟ في الحرب الماضية عفت الدولة عن كثيرين. لماذا لا تعفو عن نايف في هذه الحرب؟ في الحرب الماضية، قصد رافع مع أبي سمية وآخرين بيت السكماني في الشام. كان أصغرهم ولم ينطق حرفاً طوال الجلسة. سعوا إلى المصالحة مع السكماني من أجل نايف. قال السكماني: الجرح لا يزال طرياً. شمت بهم زاهي. لئن فشل رافع الآن. وافتضح السر، فستكون الشماتة أكبر. سوف يحرك رافع نخوة الأستاذ. عشر سنوات في السجن، ألا تفي بدم الست منيرة؟ السكماني نفسه نسيها، أفلا تنساها الحكومة؟ السكامنة تركوا جرماتي، واستقروا في الشام، وأنت اليوم يا أستاذ من أنت، خلِّ جرماتي تستبشر بك. زاهي لا يعرف التكتكة. رافع لم يسيء يوماً للأستاذ، فهل يرده خائباً؟ رافع لم يصطدم مع أحد من جماعة الأستاذ، فهل يقدر الأستاذ ذلك؟ لماذا يقضي نايف محكوميته كلها، بينما عباد الله يحظون بإخلاء السبيل،

تحت ألف حجة وحجة؟ لئن خرج نايف، فسنحيي له عرساً لم تشهده جرماتي. سبعة أيام بلياليها سوف يكون. سنزور به القبر، كما زرناه بأم سمية. السكماني يخرج من جرماتي، ونايف يعود إليها! عشر سنوات بعد مصرع الست منيرة يا نايف. كان الزغب علي وجوهنا، واليوم، انظرْ: كيف طلعت فينا الدروب ونزلت! ربّانا بعدك أبو سمية، ثم راح. راحت جرماتي منا، ثم عادت، ألن تستمع لي يا أستاذ قبلان؟

الأستاذ يغادر المدرسة قبل أن يتمكن رافع من الانفراد به. قال الأستاذ: إنه يرغب في أن يتفقد الشارع الذي سمع بأخباره كثيراً، ولم يرد. سيشرب فنجان قهوة في مضافة البرزغل. شكر محبة المستقبلين. مجّدَ مقاومة جرماتي للمحتلين. فغر رافع فاه: نعم نعم يا أستاذ. صرت تلقي خطباً وتعد الوعود. سوف تجعل جرماتي جنة بإذن الله، ستزفت الطريق، ستعمر الدمار، لا تتعبوا يا أهل جرماتي العائدين. سوف تعمر الدولة ما خربه الأعداء. متى أتقنت ذلك كله يا أستاذ؟ أين عمر الذي يعمل أجيراً في لبنان؟ أين شقيقك الوحيد من أبيك؟ في أي فرن هو يا بيروت؟ أين شقيقاتك اللواتي زوجتهن بقدرة قادر للأكابر من الشام إلى الكويت؟ الأستاذ يثني على عرض الشارع الاسرائيلي. الشوارع ضرورية لجرماتي. شكراً لك يا ملازم اسحاق. العساكر قتلوا في الزقاق. حولوا أزقة جرماتي إلى شوارع عريضة، حتى لا تظل الليالي تصطاد العساكر. من يريد أن يمدن جرماتي؟ امسح الزبد عن شفتيك يا أستاذ. امسح العرق عن جبينك. كأس الماء في يد بيزو الأمينة. جرن النبوعة يقول لك أيضاً: هنيئاً مريئاً. جرن النبوعة لم يفكر فيه الملازم اسحاق. لا الذين سبقوا ولا الذين لحقوا، هل تفكر فيه يا أستاذ؟ انزع النظارات عن عينيك، أعدها، انزعها، المحارم، ضعها، الزبد، شمس جرماتي مؤذية، تصفيق، اقفز يا ابن الشيخ محب في الهواء، هل ستعود إلى حزب الأستاذ؟ من أيضاً سيكون معك في جرماتي؟ الأستاذ سيختم الجولة في العمارة. لا تطرق يا رافع ولا تفكر. انطلق إلى بيت السكماني. لئن لم تفلح في المدرسة أو في الساحة، فعسى أن يكون ذلك في العمارة.

وعبر رافع بالشغيلة في موقع بيت أبي سمية. بادره أبوه وهو يمسح شاربيه من آثار شربة ماء:

- ألن تذهب إلى بيت السكماني؟

أجفل رافع. فكّر في مغادرته للشغيلة إلى استقبال الأستاذ. أيكون قد نطق بما فضح الخطة؟ قالوا له: اذهب نيابةً عنا. انظر ماذا يجري. ستعود لتصف لنا جيداً. ما الذي جاء باسم السكماني على لسانك يا أبي؟ أردف أبو رافع:

- السكماني فقد صوابه! عجلْ يا ابني عجلْ.

وقهقه. وحذا حذوه الآخرون. قال رافع:

- لا أفهم شيئاً.

قال زاهي:

- ولا نحن.

وتجددت قهقهاتهم، فقاطعهم محتداً، كأنما يهم في شجار:

- هل توضحون أم؟

عجز عن المتابعة. تقدم نحوهم متباطئاً، متنمراً. انطلق أبوه:

- أم ماذا يا مجنون أنت الآخر؟ هل غزا الجنون جرماتي؟ السكماني يوزع بقاياه حسنة عن روحه الطاهرة. عجلْ يا ابني عجل. حاول أن تأتينا بكل شيء. شعرة من قفا الخنزير مكسب.

وعاد إلى فأسه يضرب. قال غالي:

- سبقتك بربهان، أسرعْ.

انحرف رافع عن الشغيلة ببطء أكبر. تابع سيره صامتاً نحو بيت السكماني. أنت تقصد العمارة شحاذاً. أنت تقصد الأستاذ قبلان في بيت السكماني. انتظر ريثما يصل الأستاذ. قد لا يتذكرك السكماني. كان لقاء وحيداً عابراً منذ سنوات بعيدة. كنت فتى واليوم أنت شيخ، أكثر من الشيخ محب، أكثر من البرزغل. لم يكن الشعر مجعداً، ولا الحاجبان مقرونين، ذراعان كانا مثل العود، رأس صغير، سالفان لم

يغطيا شحمة الأذن، خصر أين منه خصر زاهي اليوم؟ سوف يتعجب السكامنة: من يكون رافع ابن بشير القصاب؟ فاهية سوف تتذكرك، كيف استحالت بعد ذلك الزمن؟ ألا زال شعرها مقصوصاً؟ ألا زال نهداها صغيرين؟ ألا زالت عيناها خائفتين؟ ألا زالت قامتها مثل القصبة؟ استحضرْ صورتها الأخيرة بكل دقائقها، لكأنما التقيتما أمس فقط! كم انقضى بعد ذلك اللقاء حتى صادفتها في الجامعة؟ ماذا كنت تفعل آنئذ؟ لم تحلم يوماً أن تدخل الجامعة. لماذا لم يذهب زاهي في ذلك اليوم، وهو الذي استمات ليشرب فنجان قهوة في بوفيه الجامعة؟ لا تسعفك الذاكرة إلا في صورتها. كانت لا تزال نحيفة طويلة، خائفة، قصيرة الشعر، ناعمة، ساقان تبرقان، أنيقة، تؤرجح في يسراها نظارة صغيرة، تضع النظارة على عينيها. ظننت للوهلة الأولى أنها ستنكرك. كذبت عينيك حين حيتك. لعنة الله عليك يا زاهي. لا تحدثه في سرّ. كم سخر من ذلك اللقاء؟ كم اتهم أحلامك! لماذا لا يجوز أن يسلم على فاهية ابن بشير القصاب؟ لماذا لا يلاقي رافع فاهية مغتبطاً مشوقاً يا زاهي؟

(16)

ضاعت منه بربهان قرب الباب الحديدي الذي يفضي عبر فسحة طولانية إلى بيت السكماني. بوغت بقلة من في الفسحة ومن في الصالون الداخلي. سلّم حذراً على كل من صادف. لم يميز من الوجوه غير بيزو. سمع كلمة المختار، كلمة الأستاذ، وكاد أن يلتفت مجيباً. سمع كلمة الإمام. بحث عن أي من الشيخين: محب الدين أو عبد الستار. احتار فيمن يسأل عن بربهان، شعر بالضياع الكامل والتفاهة وسط الصالون. لعن نفسه. غضب من غالي، من أبيه، وتناهى الغضب ليشمل الناس أجمعين. همّ بالعودة. فاجأته بربهان نازلة من الدرج

الداخلي، في زاوية الصالون الحادة الشرقية. هشت نحوه، غرغرت بضحكتها هامسة:

– مابك؟ صورتك تقطع الرزق!

وحركت حاجبيها ثم اقتربت منه محاذرة:

– السكامنة اليوم كرماء. خذوا ما تشاءون من المكادس. المستودعات مفتوحة.

خفف لقاء بربهان ما على صدره يضغط. لم يجد ما يقوله. ظل غير عابىء بالغنيمة، أراد أن يسير، أوقفته بربهان، بالغت في الهمس:

– إلى أين؟ اصعد إلى فوق، السكماني، والست فاهية أيضاً.

خيل إليه أنها غمزته بإحدى عينيها، أو بهما معاً. مرقت أمامه مخلفة إياه في حيرة أكبر. اتجه نحو زاوية الصالون التي نزلت منها بربهان. كاد أن يصطدم ببعض الرجال النازلين على الدرج الرخامي. خمن في وجه أحدهم طلعة السكماني. تلك جبهة فاهية وحدّة حنكيها . ما أشبه الرجل بابنته! لم يسلّم. لم يحس بالندم. تابع صعوده. لم يبد على السكماني أنه رآه أو أحس به. عبر بغرفة الست خالدية. رآها مديرة ظهرها وحيدة. طيات اللحم نافرة تحت القماش المشدود. الغرفة شبه عارية، تشي بالرفاه وسط جرماتي الفقيرة المدمرة. تابع السير مستطلعاً. لم يفكر بالغنيمة. لم يدخل هذا البيت منذ دهور. لا يذكر طفلاً كان أم أكبر؟ لم يكن يعرف أحداً أيضاً. لا فاهية، لا الست، لا المرحومة ولا الحية، لا السكماني ولا ولا. كان نايف لا يزال حياً. ولكن فيم جاء؟ ذكرى مبهمة من الماضي الذي يستعصي وقت الحاجة إليه. وصل إلى نهاية الممشى، الغرفة الأخيرة، الباب موارب، أليس من أحد هنا أيضاً؟ هل تتلصص يا رافع؟ نظر خلفه: خلا الممشى. مد رأسه: فاهية مستلقية على السرير، عيناها مطبقتان، رموش طويلة كذنب العقرب، يا عجباً! أهذه هي الأجفان التي رأيت في الجامعة؟ العنق مختفية، الوسادة عالية، الذقن ملتحمة بصفحة الصدر، وهج صفحة الصدر العارية يعشي البصر. يرتد رافع: الثديان ممسوحان، يا عجباً! أهذان هما الثديان اللذان كانا

مثل علامتين ممسوحتين فوق صفحة الصدر؟ البطن مديد، طية، طيتان، أوه، إنه ليس البطن المديد، هو ثوب منحسر، ركبتان، فوق الركبتين بقليل، ياعجباً! في الجامعة كان يظهر من ساقيها مثل الذي يظهر الآن. لماذا يختبيء هذا الجسم وهو غاف في غرفة خالية؟ الساقان المتراكبتان باستسلام، القدمان الحافيتان، عدْ يا رافع فتملّ منها صعداً، طيات الثوب، طيات البطن، الثديان الممسوحان، العنق الفائرة فوق الوسادة، الجفنان المطبقان، أين ذهبت أجفان الشام؟ ما هذه الهمهمة؟ من أي صقع تأتي؟ تقدمَ داخل الغرفة، خاف، تأخر، مد عنقه خارج الباب، رأى الست خالدية تختفي نازلة الدرج: خلا لك الربع، من سيتحدث عن الأخشاب عن القصب عن المكادس عن العدة؟ تقدمْ إليها. أوقظها. بأي حق تفعل؟ هل تنكرك؟ بأي حق تنكرك؟ هل تستغيث منك؟ كيف تقتحم عليها نومها؟ ابنة قريتك؟ عظيم، ولكن هل نسيت فاهية الشامية؟ فاهية الجامعية؟ يوم تعرف رافع ومئة يوم لا تسلّم، يوم تكاد تعانق، يوم تزمّ شفتيها، تشيح عنك مثل كل البنات اللواتي لا تعرفهن في الشام. ما أدراك يا زاهي بأسرارهن؟ ها أنذا أبحث عن الغنيمة، أستدير عجلاً، أرتطم بالباب، بصوت الباب، أكاد أن أرتمي، ستفتح فاهية جفنيها ممتعضة، لن تصدق الفتحة الصغيرة التي ينفرج عنها الجفنان، تعال يا قضاء الله، تمعني يا فاهية، أنا رافع ابن بشير القصاب! انهضي يا فاهية، صيحي: أهذا أنت؟ افتح شفتيك يا رافع. هذا ما كنت تخشاه! سمّرْ عينيك فوقها. استسلمْ واهتفْ: لتقع الواقعة. سوف تقف فاهية عابسة هنيهة، ضاحكة أخرى، كفها ستمتد إلى رافع، سيتردد قبل أن تعود إليه الروح، سيصافحها، يستجيب لدعوتها، يجلس على حافة السرير منكفئاً، لن يسمع اعتذارها عن خلو الغرفة من الكراسي. وأخيراً فقد جمعتنا جرماتي يا فاهية. من كان يخال ذلك حقاً؟ سوف أسالها: هل تذكرين يوم وشوشتني: صحيح أنك من جرماتي؟ كم تعجبت: لماذا لم نلتق من قبل؟ أين كان يجب أن نلتقي بالله؟ ببيت السكماني المهجور؟ أمي تقول دوماً: نساء السكامنة يكرهن جرماتي. لولا نايف، لولا الجامعة، لولا

المصادفة أين كان يمكن أن نلتقي؟ حسدني الأقران على قرابتك. قلت لهم: نحن غرباء ولو أننا من جرماتي. هي في دنيا وأنا في دنيا. هل يرضيك ذلك يا زاهي؟ حتى في الشام التي تجمع الديب مع الغنم، لم نجتمع. قالوا: أنت أولى بالبنت، دونك إياها. هل أنا كلب وهي العظمة؟ سوف تسألين ما الذي جاء بك؟ أأقول: جئت أستجدي؟ السكماني يتصدق على جرماتي بفضلاته. اضحكي على هواك، تكبري، ليس ثمة ما أخشاه منك أو عليك، ليس ثمة ما أخشاه بيني وبينك. لا تكتم انفعالك يا رافع. أعلن عن غرضك، ارو دخولك الغرفة كلمة كلمة، انتظمي أيتها الأنفاس، اهدأي أيتها الأعصاب، عذْ أيها الانشراح، امتلك يا رافع زمامك. في يقظة أنت أم في منام؟ سوف تضحك فاهية من كل شيء. سوف أستطرد غامزاً من رقة حال أهلي، وعظمة هذا البيت. سوف تدافع عن صمود البيت في وجه الغزاة، عن تبرع أبيها بالبيت للحكومة، هل تتحدين؟ سوف أتظاهر باللطف:

- لم آت لأجادلك في هذه الأمور. لم أقصد الإساءة.

وحينئذ ستعود منطلقة:

- لنطو الصفحة إذن. سوف تأخذ بعد قليل أكثر مما أخذوا جميعاً.

ثم هل ستنهض؟ هل ستغلق الباب؟ تعود لتجلس على حافة السرير، تقترب مني أكثر مما كان قبل النهوض، تضحك هامسة:

- هذا أستر، والله أمر بالسترة.

سأهنئها على إيمانها. أنظر إلى الباب المغلق، النافذة المغلقة، أجيل عيني في الغرفة. أركزهما فوق طرفي قدميها المتكئتين على الأرض. اصعدي أيتها العين الحمراء فوق ساقيها، استقري بين كفيها المتعانقتين في فرجة الفخذين. تهْ يا ابن بشير بين الجامعة، البوفيه، الحدائق، زاهي، الأقران، الشام، الفتيات الكثيرات، الجميلات والقبيحات، جرماتي الفقيرة، أرض بشير القصاب، كل شاب وله صديقة أو حبيبة أو عاهرة، وليس لرافع غير قبضة يده. رافع يريد امرأة أيها الناس، رافع يريد امرأة يا فاهية، وفجأة خدّر النداء رافع، أخره، ثم راح يعلو، ينقلب صراخاً،

يتسعر، يستحيل فحيحاً فيا فاهية السكماني هل تسمعين؟ سوف تقرأ بيسر خبيئتك، سوف تلفح جرماتي جسدها. لم تدخل جرماتي وهي صبية، لم تختل برجل فيها. سوف تتضافر جرماتي معك عليها. فاهية لا تصبر، تتلقى الجائع الذي صدته الأطباق بمثل جوعه، سوف تصيح بها: لماذا أنت جائعة يا فاهية؟ التفي حول عنقي كالحية، لا فكاك لرافع منك، استسلم يارافع للجّة البحر، اغرق فيها رويداً رويداً، وتنقضي الأزمنة بطولها قبل أن يعود إلى البيت محملاً،يبادرهم مطالباً بمرافقين: ماذا أحمل وحدي؟ قصب، خشب، مسامير، عدة؟ وينسى أبوه ما كان يضمر من عتاب، ينسى الشغيلة أن رافع قد غاب سحابة النهار. وسمعت بربهان صوت رافع عن موقع بيتها، فنادته وهي تشب على حافة الشارع الملاصق للبيت:

– الحمد لله على السلامة.

لم يفه رافع. خيل إليه أنها تضحك، تغمز، تتلفت حولها، فتلفت حوله وانطلق فارّاً من العيون.

(17)

استعان الشغيلة في بيت أبي سمية على النهار الصيفي بالأغاني، وجرعات الماء الطويلة من جرتي سمية وشقيقة رافع. صدحت حنجرة غالي وتأوه الرجال. مدت بربهان رأسها من على سطح بيتها. أنصتت متلذذة مستذكرة الأيام التي كان يغني فيها فوق جرن النبوعة، تحت سنديانات الشيخ ابراهيم، في الكروم، فوق سطح الخرابة التي حولاها بعد الزواج إلى بيت حقيقي، في أي مكان يصل الصوت منه إلى بربهان. سعى رافع كي يغرق في غناء غالي، هارباً من الضيق الذي لازمه منذ برح عمارة السكامنة. كبّر زاهي، وخاطب غالي أثر بيت جارح من العتابا:

– قلْ يا رجل: بحياة ربك: هل أنت عسكري أم معمرجي أم مغني أم..؟

قاطعه غالي معتزاً:

– أنا هذا كله!

وانصرف يضرب بعزم أكبر استحث عزم الآخرين. رن السؤال في أذنه مراراً: أين سمعت بهذا الكلام يا ابن جوجية؟ عبر بك الصحفيون، عبروا بامرأتك، كنتما منهمكين في الشغل، غالي لا يفارق البذلة العسكرية ليل نهار، في البيت، في الثكنة، في السوق، في كل مكان، غالي يغني، بربهان تتأوه، الوفد يباغت، الجيش للحرب، الجيش للتعمير، الجيش للغناء. ليس رئيس الوفد وحده يردد. ديوب فعل أيضاً. ماذا تفهم من ذلك يا ديوب؟ اذهبي يا بربهان إلى الخربة. إنهم يأكلونها بعيونهم. أعوذ بالله. ألم يروا امرأة قبل اليوم؟ بربهان شعلة ذكاء، تغمزك، تكرج بالجرة، أولاد الساقطة يمدحون بي ويأكلون زوجتي. يستميتون حتى يصوروها: صورة للرقيب بالبذلة العسكرية، صورة مع الفأس، صورة للمضام. لا ياأساتذة، لا وقت عندي للصور. لا وقت عند المضام. المأذونية قصيرة، وبربهان ليس لها من معين. كلنا نساعدها يا غالي. يا حيف! لسانك مبرد يا ديوب. كل واحد غارق في شغله، الله يعينه. المأذونية للراحة وأنت حاربت. يجب أن يعمروا لك بيتك. سلّم الله هذا الفم يا أستاذ. من هو هذا الذي سيعمر؟ التحرير بعد التعمير والتعمير قبل التحرير ولماذا تصرخ يا أستاذ؟ لماذا تؤمّنون خلفه يا جماعة؟ حتى أنت يا ديوب؟ هل كذبتكم في حرف؟ أين أستريح يا أولاد الساقطة وبيتي ورضيعتي ومأذونيتي ومتى سيعمرون بيتي؟ متى يعمرون جرماتي؟ ثلاثة غداً مع ابن صبيح وبعد غد دور من؟ ومن يحرض الرجال يا زاهي، ومن يوزع الأدوار؟ اليوم سينتهي بيتك يا أم سمية بإذن هؤلاء، وغداً ينتهي بيتك يا بربهان. غالي يشتغل عنك وعنه في بيت أبي سمية، وهم يشتغلون عن جرماتي في بيتك، وها قد عدنا نحرّك جرماتي، وهذا بيت عتابا يا شباب، لكن نداء تامر صبح لم يفسح.

التفتوا إليه جميعاً دفعة واحدة، هالهم أن الشمس اختفت، قال تامر:

- شغيلة جرماتي جميعاً انصرفوا، ما بالكم؟ هل جاء رسول البرزغل؟

أسف زاهي على العتابا وقال:

- خير؟

قال تامر:

- هو في طريقه إليكم إذن.

نفض زاهي الغبار عن رأسه وثيابه وقال:

- أفصخ.

قال تامر:

- وصل مبعوثه إلى من كانوا يساعدونني قبل قليل. هو يدعونا إلى بيته في السهرة.

تلمظ بشير وسأل:

- وليمة؟

سال غالي:

- على شرف الأستاذ قبلان؟

انتفض رافع. فكر في نايف والتفت إلى زاهي. تردد. عاد إلى أبيه. تمعن في تامر: هل من الأفضل أن يتحدث هذان الرجلان مع الأستاذ؟ قال تامر:

- فهمت من المبعوث أن كل شيء سينظم في السهرة بمعرفة الأستاذ والمختار.

استوضح زاهي مقطباً:

- المعنى؟

أشار تامر إلى الشغل في بيت أبي سمية الجديد، قال:

- هذا، بيتي، من ساعدوا غالي.. كل شيء..

قاطع زاهي ممتعضاً:

- كل شيء منظم. ما علاقتهم بهذا؟ لا داعي لأن يزعجوا أنفسهم.

أخفض تامر صوته:

- بيني وبينك: أنفي يشم رائحة غير طبيعية. هم منزعجون ونص!

وهمّ بمغادرتهم ، فناداه رافع:

- انتظر يا تامر. تعال ياأبي.

ظهرت سمية وشقيقته قادمتين من جهة الجرن. حياهما زاهي بحرارة وخطا يلاقيهما. زاغت عينا رافع، وسمع سمية تقول:

- وصل تراكتور السكماني وعليه فضل وسلوم.

نطّ زاهي مترين في الفضاء وهلّل:

- فضل وسلوم دفعة واحدة!

واختلطت أصواتهم.

(18)

تلاصقت في بيت بشير القصاب طاولتان خفيضتان مستطيلتان. تراصّ الشباب حول الطاولتين. تربع في الصدر فضل وسلوم. الشباب يجلسون على البساط. الطاولتان تحتشدان بما أعدّت أم رافع وابنتها وأم سمية. لم تغادر أم سمية موقع خيمتها قبل هذه العشية. كؤوس العرق المثلث والممزوج بماء جرن النبوعة: لون حليبي كثيف يشع في أجناب الطاولتين وعيون الشباب. ديك كبير ذبحه بشير، بعد أن تمتم بما يحفظ من الفاتحة والأدعية. أقراص البندورة وصحاف الفستق. ورفع زاهي كأسه عالياً، مقبلاً على فضل وسلوم:

- في صحة اللبنانية.

ردد فضل وسلوم معاً:

- في صحتكم. في صحة جرماتي.

لعن أحد الشباب سهرة المختار. قال رافع: البرزغل سوف يثور حين تصله أخبار سهرتنا. أكد زاهي أن الأستاذ قبلان هو الذي سيثور. أطرق رافع متمنياً أن يؤجل الاستاذ ثورته، ريثما يفلح تامر وبشير في مهمتهما. تلصصت من فرجة الباب عيون أخوات رافع، أخوات سمية، والأطفال الذين جاءوا يتفرجون. كان عدد كبير من الأطفال قد هرع إلى بيت البرزغل مستطلعين ومتلصصين، فطردهم البرزغل وابن الشيخ محب. ثمة في بيت بشير القصاب ما يصلح للفرجة أيضاً. بدا سلوم عبر الضوء الشاحب كهلاً. لم يطأ جرماتي منذ غادرها أثر مقتل الست منيرة. ابيضّ سالفاه وتشعث شعره. ارتسمت له في الجبين عدة خطوط. أما فضل فبدا أكثر طولاً. كتفاه أيضاً ازدادتا عرضاً. ملامح وجهه تصلبت كحطبة يابسة. شفتاه غليظتان وكبيرتان، كأنهما مشفرا جمل مسن. لم تنقض بعد على آخر مرة زار فيها جرماتي غير بضعة شهور. أخفته إذ ذاك المسالك والمنحنيات والكروم. غافل مع رفاقه الحراس الاسرائيليين. وطىء بالخطوة الأولى تراب جرماتي. طفرت الدمعة غير عابئة به. كانوا ينغلون في جرماتي نغلاً. شبّ زاهي في وجهه:

- ماذا جئتم تفعلون؟

وتلمس سلاح فضل، ومسّد جعب الآخرين، ثم قال:

- ارحلوا. أنتم هنا في خطر كبير.

قال فضل:

- أريد أن أطمئن على جرماتي يا زاهي. أخباركم لا تصل إلا سيئة.

قال زاهي:

- ماذا تنتظر غير ذلك؟ هيا تابعوا.

وطردنا طرداً.

منذ متى تعرف يا زاهي أن فضل يعمل مع الفلسطينيين؟ ضبطت بعيني هذه الملازم اسحاق وديوب خارجين من دكان عمك. تفو. قال مختارنا وابن بلدنا. كانا يتساران، يضحكان، ولولا المهمة، آخ.

وشرب سلوم كأس الطالعين، دارت عيناه فوق رؤوس الشباب، ثم استقرتا فوق رأس زاهي. رفرف جفنا رافع ثم غض، ثم تعثرت أصابعه في صحن البندورة. قال سلوم:

– الآن انتهى دورنا وجاء دوركم. أول الثلاثة سجنوه منذ عهد نوح[1]، والثاني طار إلى لبنان[2] والثالث قتلوه[3]. وسكت، لكن العرق أخذ يلهج في جوانحه: شوقي إليكم أكبر من شوقي إلى بيت أختي عبد الستار. من الساحة قادتني قدمي إلى هذا البيت. فضل عرّج على دكان بيزو، وأنا سبقته إليكم. سوف أحمل لأولاد عبد الستار الصرة. لا تفتحيها يا أم رافع. صرّة كبيرة ملأى بالثياب، بالشيكولاته، سوف يجبهني الحزن في وجه العرجاء، في وجوه الأولاد، في وجه أختي. من منكما تعزي الأخرى؟ سوف يصيح بيت عبد الستار بي: الشيخ محب أخذ روح المرحوم، اسكتي يا عرجا، اسكتي يا أختي، أخبار جرماتي تصل إلى اللبنانية قبل الحورانه والدلبة. ماذا تريدون أن أفعل بالشيخ محب؟ هذا ما أصابني منك ياشيخ عبد الستار على الدوام. مصيبة تروح ومصيبة تأتي. مصيبة في الحياة ومصيبة بعد الممات. حتى في لبنان لم أنج من بلواك. ما علاقتي بك وبالشيخ محب؟ من أين سيأكل هذا الغول الذي خلّفته لي؟ من أين ستأكل العرجا؟ أختك؟ ألا يكفيك ما أخذته مني طوال عمري حتى تورثني هذا الإرث؟

أقبل الشباب يأكلون نهمين، يغبون العرق غباً. أرسلوا في أثر غالي كي يغني لهم. قال زاهي: أنتم تظلمون الرجل: في الليل شغل مع

---

(1) يعني نايف.

(2) يعني نفسه.

(3) يعني أبو سمية.

بربهان وفي النهار شغل في الـ... وغطت قهقهاتهم على كلماته. لعنوا لسانه السليط. أنصتوا إلى أخبار الجرمتلية الآخرين في لبنان. ماذا تخبر يا سلوم عن عمر؟ مِنْ ظهر مَنْ يكون؟ لو كان تامر يسمعك لعجّل كعادته: قبلان ابن حرام من يماري؟ قبل أن تصبح بولته على الأرض تشلفط لم يكن أحد يماري في جرماتي. من يحرم شقيقه الوحيد من إرث أبيه؟ من يطفّره إلى لبنان؟ من يبيع شقيقاته بالدنانير والريالات؟ من يبيع جرماتي اليوم ويشتريها غداً، ويبيعها غداً ويشتريها اليوم غير ابن الحرام؟ من يرث السكامنة ويعلو في الشام غير ابن الحرام؟

سُمِعتْ في الخارج خبطات أقدام قوية. تدافع الأولاد لاغطين. لوى عدد من الشباب أعناقهم نحو الباب. ملأ غالي فرجة الباب ببذلته العسكرية. هللوا له وهبوا واقفين. قال رافع:

– احزرْ يا غالي بماذا كان زاهي يغتابك؟

أسرع غالي ضاحكاً:

– ذكرني بالسوء حتماً.

وقرفص يفك أربطة بوطه سائلاً:

– أين أبوك يا رافع؟

اندفع زاهي كأنما يثأر:

– أرسله ابنه في مهمة.

كزّ رافع على أسنانه. خاتل القلق الذي لم يبارحه منذ توجه أبوه وتامر إلى بيت البرزغل. لسوف يشمت زاهي لو فشلا. سوف يردد عبارته الأليفة: ألم أقل لكم؟ تربع غالي إلى جانب رافع. أقبل على الكأس وقال أحد الشباب:

– هات يا غالي.

صفق الآخرون. تلاشت الأصوات وانتظروا صامتين. عاد غالي إلى كأسه يجرع بظمأ شديد.

قال زاهي:

- دعوه يزيت حنجرته.

هللوا لغالي وشربوا نخبه. صفقوا حتى تلاشت الأصوات. انتظروا صامتين ثم همهموا، إلا أن غالي لم يفرق شفتيه. قال زاهي:

- أليس بينكم من يبدأ، لعل صاحبنا تأخذه النخوة؟

أطرق رافع هنيهة، ثم تلع برقبته، وانطلق ببيت من العتابا يذكر فيه نايف. وجم الشباب متذكرين العتابا التي غنتها جرماتي لنايف في سنيّ السجن الأولى. وهاجت أشجان غالي. لم يكن قد التحق بالجيش حين قُتِلتْ الست منيرة. جرع ما تبقى في كأسه الرابع دفعة واحدة. لم ينتظر ذيول بيت العتابا الذي طلع به رافع. فاضت أذكار نايف والصبا على لسانه. حدق رافع في زاهي مباهياً. استغرقت النشوة والذكرى رؤوس الحاضرين، فلم ينتبهوا لقدوم بشير وتامر. باغتهما الرجلان، فصفقوا، وقطع غالي غناءه، وعلا صوت تامر حاداً:

- أكمل بالله عليك يا ابن جوجية.

صاح بشير غاضباً:

- أنتم تغنون وتسكرون، ونحن في جهنم الحمرا.

تعجل رافع أباه وتامر. بصق أبوه في فرجة الباب، وتقدم تامر نحو ساميلا قائلاً:

- لعنة الله على عمك يا زاهي.

صمت الشباب ناظرين إلى زاهي الذي قال باسترخاء:

- هل من جديد؟ ليت الاسرائيليين أخذوه معهم، لكان أراح واستراح.

قال بشير:

- ما إنْ أبصرنا داخلين، حتى بادرنا: كيف تتركون السهرة في بيتك يا بشير؟ وبرم عينه على الأستاذ.

أضحك بشير الحاضرين بتقليده صوت وحركات بيزو، فشجعه ذلك على المتابعة:

- قلْ: جاء ربك بها سليمة، ولم يسمع الأستاذ. راح الديوث يرمينا بطرف عينيه، قلْ: نظرة ذئب، إي والله العظيم، حتى إذا نطق تامر بأول كلمة: يا غاية الله صبي.

قال تامر:

- قاطعني محتداً: إذن جئتم للطلب والحاجات، وليس من أجل الأستاذ؟ وبدأنا.

ورشف رشفة قصيرة من كأس العرق الذي سكبته له ساميلا. وبشير يقول:

- صار بيزو يرمينا من جهة، الشيخ محب من جهة، البرزغل من جهة، أعوذ بالله من هذه الورطة. يا ابني رافع الله يوفقك.

اغتمّ رافع، فيما عاد بشير يقلد بيزو تارة، والشيخ محب أخرى، والبرزغل ثالثة، والأستاذ رابعة،فلا يفلح في التقليد، لكنه يستثير ضحكهم وسخطهم: هل يجوز أن يسهر الأولاد في بيتك، وجرماتي هنا ترحب بالأستاذ؟ لماذا تلحون في موضوع نايف؟ أيكون مجيء سلوم هو السبب؟ أنت شططت الأولاد كثيراً يا بشير القصاب. صار الأولاد يتدخلون فيما لا يعنيهم. شببت واقفاً وشهرت ذراعي في وجوههم كالسيف. أولاد من يا رجال يا كبار؟ هل نسيتم ما فعله أولئك الأولاد أيام الاحتلال؟ قال بيزو: وماذا فعلوا؟ كادوا أن يسببوا لجرماتي الدمار. جاهلون، وساعة يعمرون بيتاً، وساعة يوزعون الأدوار، ساعة الله أعلم، لماذا لا يذهبون في العشايا إلى الجرن، يتصيدون الصبايا؟ آه لو وصلت إليه يا زاهي. كنت فجعتك بعمك هذه الليلة.

كانت عينا رافع تتقدان. لم يعد يقدر أن يبعد عينيه عن زاهي. آه لو أنك تنقلب الآن بيزو. ليس أبي ولا تامر من يفجعك بعمك. رافع كان سيفعل. لماذا تهرب إلى الشراب؟ هل يقطع ذلك الرحم بينك وبين بيزو؟ هم يرفعون كؤوسهم معك. وأنا أرفع كأسي أيضاً. أجيد مثلك إدارة اللسان. لا تريد أن تنغص تلك السيرة سهرتنا، غداً ستحسب لهم حسابات جديدة. في صحة نايف الذي سيخرج على يدنا. ماذا لديك

أيضاً؟ ادع غالي إلى الغناء، ادعه يا تامر، ادعوه جميعاً، اسبقه يا أبي. بشير القصاب يدندن بوصلة ميجانا قديمة، يهلل الشباب، يرددون الوصلة، أصواتهم نشاز، تضحك ساميلا، يضحك غالي، يعلو في الجوقة صوت زاهي، ينقطع صوت رافع في حلقه، ولا ينتظر غالي نهاية الوصلة.

(19)

اندفع سلوم بجمعه خارجاً من بيت بشير، مشرعاً صدره للنسيم الليلي الرطب، غير آبه بالوصايا التي انطلقت في أثره:

- احترسْ من البرد، شربتَ أكثر من الجمل.

انعطف يميناً مبارحاً بيت بشير. أوشك أن يدخل الزقاق الذي يقود إلى بيت شقيقه الشيخ عبد الستار. استوقفه لغط قريب. ترنح مغالباً العرق، وجاهد في التنصّت. خيل إليه أن صوت زاهي قريب. سمع صوتاً آخر مبهماً. اجتمعت فوق عينيه أخيلة العرجا وسمية وشقيقة رافع ونساء أخريات. عاد صوت زاهي أكثر وضوحاً:

- لماذا سهرتِ حتى هذه الساعة؟

رد الصوت الأنثوي:

- غناء غالي، أخبار سلوم، حكايات فضل.

بوغت سلوم بصوت ثالث محتد:

- زاهي؟ سمية؟ ماذا تفعلان؟ أين شقيقتي يا سمية؟

تمتم سلوم: في حضني يا رافع. اختلجت شفتاه تحاولان التبسم. تمتم من جديد: ولِمَ كل هذه الحدة يا ابن أخي؟ باعد بين قدميه متابعاً اندفاعه، مغالباً الثقل الذي استبد برأسه ومفاصله. تكلم بصوت مسموع: رافع يحسب نفسه وصياً على كل البشر. تلك عادته قبل أن تنبت له شعرة في

عانته. تاهت به الهواجس: أيكون زاهي وسمية حبيبين؟ هنيئاً لك يا زاهي. هنيئاً لك يا ابنة أخي. من في جرماتي يستحق مصاهرة أبي سمية؟ هل تغار إذن يا رافع؟ هل وجدت شقيقتك؟ لعلها مع زاهي آخر. أنتما إذن لم تسهرا من أجل صوت غالي. لم تسهرا من أجل أخبار سلوم وحكايات فضل. قولي يا ابنة أخي قولي. قل يا زاهي ولا تستح، لا عيب في الحرام، قلْ. ماذا حفظ العروسان عن سلوم الذي اشتغل في الشد على البحر، في البستنة، العتالة، كل ما خلق الرب من أشغال، قبل أن يستقر به المقام في منشرة التريبيشي. ماذا حفظتما من حكايات فضل؟ هل صدقتما أنه يعمل على البحر في صيدا؟ أنا أعرف أكثر منكما. فضل ترك كل الأشغال. فضل التحق بالمعسكرات منذ شهور وشهور. فضل سبق سلوم هذه المرة يا عرسان جرماتي. واصطدم بغتة بالباب الخشبي العتيق لبيت عبد الستار. ارتدمتألماً يتلمس آثار الصدمة في أرنبة أنفه أو جبينه، صاح منفعلاً:

- افتحي الباب يا عرجا. افتحي الباب يا بنت الدبرني.

دفع الباب بباطن كفيه، فانفتح مصوتاً. دخل يجيل عينيه الغائمتين في أنحاء البيت. ارتد الباب منغلقاً بخبطة قوية. اهتزت ذبالة الفانوس. تراقصت خيالات الأشياء، وتداخلت في عيني سلوم. صاحت شقيقته من الزواية:

- لماذ شرفت الآن؟ خلّنا ننتظرك حتى الصباح.

ارتمى على البساط. سلم على شقيقته. تذكر الصرة. بحث عن أطفال شقيقته، لم تأت العرجا لتسلم عليه. ميز موقع أخته في الفراش إلى جانب العرجا. نزع حذاءه وقذف به قرب الباب. طنَّ في أذنه لغط كثير. قالت شقيقته:

- تركنا لك فراشاً مع الأولاد في البيت الثاني.

تجشأ بقوة. مد يده باحثاً عن مسند. أردفت شقيقته:

- لا تسترخ، من ينهضك؟ قم إلى فراشك مع الأولاد، وفي الصباح..

قاطعها زاجراً:

- لن أنام هناك. سوف يوقظونني قبل طلوع الشمس. لتذهب أمهم، وسأنام معك في هذا الفراش.

أرخى رأسه على المسند القاسي. استلقى متلذذاً. عاود التجشؤ. كاد أن يقذف ما في جوفه. سمع صوت العرجا من بعيد:

- رائحتك ملأت البيت. ما هذه السكرة؟!

عبر به خيال شقيقته عجلاً. خيل إليه أنها تشتم وتهدد بذهابهاإلى فراش الأولاد. قهقه وصاح:

- هل تريدينني أن أنام مع العرجا؟ سأنام على هذا البساط.

علا صوت شقيقته من مكان ما:

- المرأة مريضة ولا تستطيع أن تنهض في هذا الليل. ماذا سأفعل إذا كنت شربت جرة عرق؟ سامحكم الله يا بيت بشير القصاب.

عاد يقهقه صائحاً:

- مريضة يا عرجا؟ ألا زالت العادة الشهرية تأتيك بعد المرحوم؟ هاتي غطاء يا بنت الدبرني. فهمت لماذا لم تسلمي عليّ يا عرجا. لا فراش ولا غطاء لك يا سلوم في بيت المرحوم!

أرخى رأسه ثانية على المسند، مكملاً قهقهته. لمع باطن قدم العرجا في طرف اللحاف الأدنى. حدق في باطن القدم التي راحت تتوهج. تمتم: من أين لك هذه القدم وأنت التي قضيت ثلاثة أرباع عمرك حافية؟ رفع رأسه بجهد شديد. مط ظهره حتى استوى جالساً. طاف بالفراش. حط نظره على الفراغ الذي خلفته شقيقته في الفراش. طار إلى الباب وأرتجه. تعثر في عودته وهوى. ضاعت كلمات العرجا، وعاد يحدق في أطراف اللحاف جميعاً، يستجدي قدماً أخرى أو لمعة. خيل إليه أنه يرى طرف سروال نسائي. منذ سنين لم تقع عيناه على سروال نسائي طويل ملون مثل البيجامة، يمتد تحت الفستان، ولا يترك من القدمين ما يلمع. همّ بالزحف على باطن كفيه وركبتيه، يكبت ضحكة ملء الصدر.

حاذى طرف اللحاف الأدنى. همَّ بدغدغة باطن قدم العرجا. انسحب القدم واختفى. تراءى جسد العرجا يتململ تحت اللحاف. ارتسم لسانها يتحرك وحيداً على الجدار المقابل. أرسل عينيه نحو الطرف الذي ظهر من السروال. ألفى الطرف يزداد بروزاً. فرك عينيه متيقناً. لاب بلعومه على قطرة عرق. مدَّ أصابعه جاذباً الطرف بقوة. انتفضت العرجا تحت اللحاف. انسحبت إلى الجهة المقابلة. رنَّ في أذنيه صوت غريب يهمس:

- ما بك يا سلوم؟

تفاقم الثقل فوق رأسه. قرفص قرب الفراش. أطلَّ على رأس العرجا التي جهدت في الاحتماء ببقايا اللحاف. شدّه نحوها انكسار عينيها. نزل عليه من السماء سلوم آخر ينتر اللحاف من أسفل، يلقيه بعيداً. غطى اللحاف وجه العرجا، وكشف ساقيها وبطنها. اختفى تحت اللحاف صوتها الراجي. بدا الفستان مرفوعاً، والسروال يغطي الورك الأيمن، ومض تحت شعاع الفانوس الورك الأيسر أو صفحة الفخذ. دعك سلوم جفنيه. ضغط سلوم الآخر على اللحاف. شد السروال بيمينه. سمعه سلوم يصيح بالعرجا مجلجلاً:

- إذا سمعت صوتك خنقتك.

ثم جثم فوق ساقيها المجتمعتين ، يفك أزرار بنطاله مهمهماً:

- أليس في جرماتي رجال بعد الشيخ عبد الستار؟

وتناهى إلى سمع سلوم وقع أقدام مبتعدة.

الفصل الثاني

(1)

غادر جبر رزوق سريره الضيق مبكراً. سوّى السرير كما تعود خلال الشهور الماضية من حياته العسكرية . ارتدى بزته الرسمية، ولم يضع الرتبة القماشية. رتب أوراق الكشوفات والاستمارات في مصنفين كبيرين. تفقد قلمه، علبة السجائر، الكبريت. كل شيء غدا جاهزاً. يستطيع الملازم المهندس أن يبدأ يومه الأول. إلا أن أبا رافع لم يأت بعد. عليك إذن أن تنتظره. كنت تخشى أن يسبقك. كيف يقولون: العسكرية لا تعلم الحجر الصوان؟ ألم تعلمك اليقظة المبكرة؟ ألم تتحفك بهذه الهمة كلها؟ سوف يأتي أبو رافع ليتعجب: لماذا أنت عجول يا ابني هكذا؟ كم مرة قال ذلك منذ وضعت يدك في يده أمس! الزمن لا يرحم يا عمي بشير. اسأل ابنك عن أيامنا الأولى في المدرسة، عن عجلتنا في كل شيء، اسأل زاهي: في الدراسة، اللعب، الغزل، الأكل، الضرب، الصراخ، كيف فرقتنا الأيام من بعد؟ في جرماتي مدرسة ابتدائية، في الدلبة، في الخسفات، في الحورانة وحدها اعدادية. جمعتنا الاعدادية ثلاث سنين، فرقتنا الشام كل السنين: واحد في الزراعة، عاد رافع إلى الأرض قبل أن يحمل الشهادة، واحد في الصناعة، عاد زاهي ليشتغل في النجارة، شهادته على باب دكانه، في قلب جرماتي، لا وظيفة في الشام، لا الجامعة خصوصاً، وواحد حمل البكالوريا العلمية، دار سنتين على أبواب الجامعة، حتى سمحوا له بالدخول، صار جبر رزوق مهندساً، صار ضابطاً مجنداً في جرماتي، عشر سنين أم اثنتي عشرة؟ كان زاهي يختفي في الليالي، يقول رافع: هذا الولد يلوص في السياسة، نايف يربيه، أبو سمية يربيه. وكنت أقول: لماذا لا تكون أنت أيضاً يا ابن بشير؟ تحرك

يديك كعادتك، تقسم بالله أنك معهم، لكنك لا تحب اللوص مثل زاهي. وزاهي لا يحب الشغل في الأرض مثل رافع. وجبر رزوق ماذا يريد من الدنيا كلها؟ من الماضي البعيد، القريب، الحاضر، الآتي، سوى كأس شاي يبهج النفس، فمن يأتيك بها؟ رفضت دعوة المختار، قطعت على نفسك سلفاً خيراته. وبيت بشير القصاب بعيد عن المدرسة، سوف تبرد كأس الشاي إذا حملها الرجل من بيته إلى سريرك. آثرت المدرسة على كل البيوت. كم تمتد المسافات بين مرورك على غابر جرماتي، وبين ما آلت إليه اليوم! ما أبعد الحورانة عنها؟ عشرة كيلو مترات جعلتها الحرب مئة! لم يعد أولاد جرماتي يكملون الاعدادية في الحورانة، والثانوية في الشام. أتراهم كانوا يفعلون في اسرائيل لولا الانسحاب؟ ينبغي أن تلتقي اليوم بكل الذين عدّهم لك أبو رافع أمس. ليست كل الأسماء جديدة على مسمعك. ألم يحدثك زاهي عن عمه؟ ذاك هو الذي استفتحت بلقائه، حين حطت قدمك الأولى في جرماتي رحالها: الكوفية السوداء المرقطة، الإبهام المقطوعة، المخاط القابع في فتحتي الأنف منذ خمسين سنة. وبقدرة قادر كان المختار قد دخل دكان بيزو. هل كانا يرابطان لك؟ أهلاً بسيادة الضابط. يا أهلاً بالمهندس الكبير. جرماتي تعمر على يديك المباركتين. الخير مكتوب على جبينك يا أستاذ. أعوذ بالله من هذه الديباجات. من أين جادت عليّ الأرض بهذين اللسانين؟ هل تدلانني أيها السيدان على بيت بشير القصاب؟ ماذا تريد من بشير القصاب يا أستاذ؟ لماذا برمت وجهك يا مختار؟ ابنه صاحبي. درسنا معاً، ولم أسمع أخباره منذ عهد نوح. فجعتهما بك حين صممت عن دعوتهما. ماذا ستحكي جرماتي بحق المختار إذا لم تنزل في بيته؟ بيت بشير القصاب لايتسع لكرسي. ليس عند الجماعة ما يبل الريق، سوف أنام في المدرسة يا مختار. لا تنسَ أني عسكري. عدّتي كلها في صندوق البيك آب. سوف نخصص لك غرفة بطولها وعرضها يا أستاذ. لاداعي للعسكرية وأغراضها، نحن أهل، وخير الله وافر. شكراً يا مختار، والآن أين بيت بشير القصاب؟ لاريب أنهما شتماك في سرهما. رأس

عنيد كالصوان، لا تنفع فيه حيلة ولاوسيلة. أمك قبل المختار نعتتك في كل لقاء. المختار لا يزور بيت بشير القصاب. خير إن شاء الله؟ ما بينكم يا أهل جرماتي؟ ألم ترتق الحرب الفتوق؟ ألا يليق بقنبازه النظيف أن يجلس هنا يا رافع؟ أبو رافع لا يريد أن يحكي لك. لا تتردد يا عمّي. قلْ كل شيء، قل لست غريباً عنكم. لست فقط صديقاً قديماً لابنك. سوف أقيم بينكم فترة طويلة. سوف أدخل كل بيت، المهدوم وغير المهدوم. سوف أسمع كل شيء. ألست رسول الدولة من أجل تعمير جرماتي؟ أبو رافع وتامر صبح يتوسطان عند الأستاذ قبلان للإفراج عن نايف. أبو رافع يفتح بيته لسهرة طويلة عريضة. زعران جرماتي في بيت القصاب. أوادمها في بيت المختار. أنتم تتطاولون على المخترة. يظهر أن مخترة ديوب أيام الاحتلال عودتكم عادات رذيلة. الأولاد يتدخلون فيما لا شأن لهم به. ماذا قال المثل في البلد التي يحكمها ولد؟ صحيح أنهم ضربوا الاسرائيليين، لكن ذلك كان طيش الشباب. اردعْ ابنك يا بشير واترك الباقي علينا. لكنْ بشير يأستاذ ولد أكثر من ابنه. لم يكتف البرزغل بما كان في السهرة. ودع الأستاذ قبلان في الصباح، وطار إلى بيتنا. اخرجْ من هذا البيت يا برزغل. أهذا جزاء من استقبلك وزين لك وأعادك أكبر مما كنت؟ وانقضى الليل الأول. لم ينجز جبر رزوق غير الانتقال من دكان بيزو إلى بيت بشير، ومن بيت بشير إلى المدرسة. ودخل بشير مهللاً: الله يصبحك بالخير يا ابني.

فاحت رائحة الشاي المخمر الممزوج بالقرفة. الابريق ملفوف بغطاء سميك. البخار يتصاعد من فوهته الضيقة. قفز جبر وتضاعفت بهجته. تعثرت الكلمات على شفتيه. من آخر الشارع إلى المدرسة حملوا لك الشاي. غدوت رافعاً جديداً لنا يا أستاذ. من أين تريد أن تبدأ يا أستاذ؟ المدرسة. إي وحق الله: المدرسة. أصبت يا أستاذ. تعمير المدرسة أولاً. ضيع الاحتلال على أولادنا سنة، فهل يضيع الانسحاب عليهم أخرى؟ قال جبر:

– وبعد المدرسة نذهب إلى جهتكم. نبدأ من طرف القرية هناك، ونتجه نحو طرفها الآخر عند الجرن، بيتاً بيتاً.

قال بشير:

– لِمَ لا تبدأ من هنا؟

وقف جبر في فرجة الباب يجيل بصره في أفق جرماتي ومعالمها. وقال:

– الدمار أغلبه في جهتكم يا عم. صحيح أن الدنيا كانت مظلمة، لكني لاحظت الكثير أمس.

قال بشير:

– ليس من أجل الدمار يا استاذ.

أسرع جبر:

– من أجل ماذا إذن؟

داعب بشير أطراف شاربيه وتلعثم:

– أخشى عليك لسان المختار، لسان غيره. سوف يتقولون على ابتدائك بتلك الجهة. على كل حال لا يضيرك لو اتجهت إلى الجرن أولاً.

بشير يحسب للأمر حساباً كبيراً. الشغل شغلك وأنت أدرى. اشرب الشاي قبل أن يبرد. بشير حائر، هو فرح بك، خائف عليك، كيف تخلصه مما به؟ اسأله عن ابنه، عن زاهي، عن تامر، أين سيشتغلون اليوم؟ اسأله عن الأسماء التي حفظت والتي لم تحفظ، فتعود الروح إلى بشير، تنفرج أساريره لذكراهم. هل يكون الحب وحده؟ أم أنه يحس معهم بالأمان؟ وهكذا إذن: سافر غالي، فضل ،سلوم. ها أنت أيضاً تهفو إليهم مثله. أتكون العدوى قد أصابتك؟ ليس وحده ما حركوه أمس في دخيلتك. ليست دفائن الزمن التي بعثوها: أسماء من لبنان، أسماء من الجيش، لوص في السياسة، لكأن ما في جرماتي يضارع ما في الحورانة، الخسفات، الدلبة، الشام نفسها، البلاد كلها، لكأن زاهي هو جبر وجبر هو رافع ورافع هو.. ولكن رافع لم يزل مثلما كان، أين هو من جبر، أين جبر من زاهي، أين زاهي ممن؟ لم يبق في جرماتي من يتقدمه، لم يخرج نايف من السجن، لم

يقم سلوم في جرماتي، لم يُبعث أبو سمية من القبر، لم ينتصر الأستاذ قبلان، وجمع بشير كأس الشاي مستحثاً:

- انظر أين صارت الشمس يا أستاذ!

(2)

هذا بيت الرقيب غالي. هذه بربهان امرأته. عمّر الزوجان بيتهما المدمر في ستة أيام، واستويا في اليوم السابع فوق خلقهما. كانت إجازة قصيرة جداً يا أستاذ جبر. بيت مرقع ترقيعاً عجيباً. سترت الرقع عورة البيت، لكنها شوهته. صار مزموماً مثل البنطلون الذي يلعب به المقص بعد عمر طويل. الغرفة اليسارية أطول مما يجب بكثير، أضيق مما يجب بكثير، ولم تعد الشمس تدخلها. الجدران في الداخل ملساء في ناحية الجزء الصغير الذي لم يدمر، متعرجة شوهاء في سائر النواحي. لم تستطع بربهان أن تجعل الجدران مستوية على الرغم من براعتها في التطيين. قالت شقيقتها الأرملة: الأسمنت لا يجوز أن يجاور الطين. لولا القسم الأسمنتي الأملس لما بدا القسم الطيني الجديد قبيحاً على ذلك النحو الفظيع. لم يعد للبيت درج. صنع غالي سلماً بدائياً من الأخشاب التي أتت بها بربهان من مستودع السكامنة. لم ينتفع الزوجان بمهارة زاهي في النجارة. لا زال الرجل راكباً رأسه منذ الاحتلال. لا يضرب مسماراً في خشبة. السطح أيضاً تجاور فيه الأسمنت والطين. هل تنوين أن تستقري في هذا القصر؟ برمت مستنكرة سؤال الأستاذ أو مزاحه. حدقت في أبي رافع ثم قالت:

- جرماتي تحسدني عليه ياأستاذ.

قال جبر مراضياً:

- سوف نجعلها تحسدك على شيء آخر. سوف نهدمه. زوجك حارب وصهرك استشهد. تستحقين أن يكون لك بيت غير هذا.

بسطت كفيها أمام صدرها، وتعثرت شفتاها:

- عظم الله أجرك يا أستاذ. خذوا خيرنا لغيرنا. غالي ممنون منكم وأنا أكثر. هذا والله كلام الوفد الذي زارنا يا عمي بشير.

اهتزت جدائل شعرها غضبى. غضَّ جبر. تبادل مع بشير نظرة سريعة. عمد إلى إحدى الاستمارات يملأ حقولها. سأل أبا رافع عن رقم مسكن غالي. تقدمت بربهان من الاستمارة. أطلت عليها من فوق مرتابة. وتعثرت شفتاها من جديد:

- لا تكتب شيئاً يخصّ البيت يا أستاذ. غالي لا يقبل.

- أنت اقبلي ودعي غالي علينا. سوف نرضيه.

نطق أبو رافع بكلمته الأولى:

- من يرفض الخير يا بربهان؟

سألت محتدة:

- هل بصمت أنت؟

اندفع أبو رافع:

- طبعاً يا بربهان. إنْ شاء الله، بفضل الأستاذ جبر، نتخلص من بيوت الطين جميعاً.

اختلجت وجنتاها، طقطقت أصابعها ثم جمعتها فوق صدرها. غالبت الخوف قائلة:

- غالي لا يرضى. ماذا يضمن لنا أن.. أنتم تعرفون الحكومة ومشاكلها. ها قد عمّرنا حسب ما نقدر والحمد لله.

قال جبر بصوت حازم:

- لا مشاكل ولا سواها. انظري هذا البيت الذي تعبتم فيه، خسرتم عليه، لا تدخله الشمس. سوف نعمر جرماتي جديدة تدخلها الشمس من الجهات الأربع.

وضحك. بانت أسنان بربهان دون أن تفارقها الحيرة. قال أبو رافع:

- توكلي يا أختي على الله.

التمع خداها فيما كانت تحسم ترددها. استفسرت عما يجب أن تبصم عليه. تراخت ملامح جبر، وأقبل عليها بأناة:

- حسبت أنك يا أختي فهمت كل شيء من شرح العم. هل يسكن أحد معكما؟ حسناً أنت وابنتك وغالي ثلاثة. سوف نعمر غرفة مكان هذه التي رقعتموها. غرفة على حساب الدولة، والثانية أرى أن تكملوها، لا ترقعوها، وبذلك يصبح عندك غرفتان. سوف نعمر أيضاً على حساب الدولة مطبخاً صغيراً، ومرحاضاً أصغر.

ضحك بشير، وضحك جبر. داعبت عيني بربهان خيالات مبهمة عجلى. ارتجفت شفتاها ووجنتاها، همتْ بالضحك، تراجعت وقالت متشككة:

- من أين سنكمل الغرفة الثانية يا حسرتي؟ ماذا استفدنا؟ سوف تهدمون هذه لتعمروا مكانها واحدة. يا أخي اتركوها كما هي وأكملوا الناقصة و..

قاطعها جبر:

- حصة الشخصين حسب التعليمات غرفة ومطبخ ومرحاض. تكميل الغرفة الثانية سأساعدكم به. لا تهتمي. اشرح لها فيما بعد يا عمي أبو رافع. أثناء تعمير الغرفة الجديدة، نترك لكم من الأسمنت والحديد والبلوك وسواه ما يكفي لتكميل الغرفة ويزيد. ماذا يبقى عليك؟ السجلات لا تسمح رسمياً إلا بغرفة. فهمت يا أختي؟ أما هدم هذه الغرفة المرقعة، فلأنني أريد أن يكون البيت كله جديداً. كله من الاسمنت والحديد، هيا أشّري هنا بالموافقة. إذا كنا سنتعب في كل بيت هكذا، فلن ننتهي حتى تطلع الروح.

وضحك متناولاً إبهام بربهان الدقيق. قال بشير وهو يعاين تمريغ الإبهام في السطمبة:

- سيكون عندك قدر ما عندي، وأسرتي تكبر أسرتك كم مرة؟

مسحت الإبهام بطرف منديلها وقالت:

- كيف؟ يقول الأستاذ لكل شخصين غرفة؟ أنتم ما شاء الله!
قاطعها جبر معيداً الاستمارة إلى المصنف:
- الحد الأعلى غرفتان وصالون مهما بلغ عدد أفراد الأسرة. حتى لو كانوا عشرين. ولكن سوف نصلح لبيت عمي بشير غرفة، إضافة إلى ما سنعمر. الحمد لله ثلاثة أرباع أسر جرماتي كبيرة. خاطرك ياأختي.

(3)

التقى رافع بأبيه وجبر قرب بيت أبي سمية. أمعن في تقاطيع محيا جبر على ضوء النهار. لم يفتأ منذ المساء الفائت يستقرىء السنين المديدة التي باعدت بينهما. أين صارت اليوم إعدادية الحورانة؟ أين ذهب صندل جبر رزوق الذي لم يكن يبدله صيفاً ولا شتاء، في الوحل أو الماء أو الأشواك؟ ماذا حل بذلك الجبين الضيق الذي كان الشعر الأشعث يغطيه تقريباً؟ أي الأساتذة كان ينعتك يا جبر بالغباء، لأن جبينك مكسو بالشعر؟ هل لاقيته بعد ما صرت مهندساً؟ ها هو الشعر قد انحسر عن الجبين فماذا سيقول فيك الآن؟ عيناك لم تتبدلا، شفتاك المزمومتان الرقيقتان، ذقنك ازدادت نحولاً، مدببة صارت كرأس القلم المبري. شارباك اسودّا وغلظا. طوال عمرك وأنت مغرم بتربية الشاربين. كانا في تلك الأيام زغباً أشقر، تتناثر في زواياه شعيرات سوداء ناشزة،أما الآن... أما الآن فأبو رافع قربهما يراقب: يتحسر لأنه لم يستطع أن يعلم ابنه حتى يصبح مهندساً مثل جبر. يجيش صدره بهتاف حار: شباب كالورد، شباب كالسيف، من يقول: إنهم أولاد؟ من يقول: إنهم جهال؟ ليس في جرماتي من درس أكثر من رافع غير زاهي. لا تعدّ السكامنة،لا تعدّ الأستاذ فبلان، ماذا تساوي الشهادات؟ ها هو رافع يقف إلى جوار جبر كأنه مهندس آخر. رافع جعل الأرض تكب ذهباً. زاهي جعل النجارة تكب ذهباً. ها قد رحل الاسرائيليون، وغداً تعود إلى الكروم يا

رافع. غداً تعود إلى نجارتك يا زاهي. وأنت يا جبر، تعمرها بيتاً بعد بيت. ما تسمح به السجلات وما لا تسمح. تريد من رافع وزاهي ومني ومن غيري إقناع الناس؟ طيب اهدموا البيوت العتيقة يا ناس وهاتان هما عينا رافع تتقدان. أين أنت يا زاهي؟ اترك بيت أبي سمية قليلاً وتعال. من أين طلعت على جرماتي يا جبر رزوق؟ دعهم يهدموها مرة بعد مرة. كلما دمروها نبنيها على نحو أفضل وأجمل. لقد آن الأوان. سوف تنتهي البيوت العتيقة منك يا جرماتي. يوم فتح الذين سبقونا الطريق، وعمروا المدرسة، هلّ عليكِ هلال جديد. اليوم يهلّ هلال آخر، هلال أكبر، فأين جرماتي الجديدة؟

هذا بيت أبي سمية: ارتفعت الجدران، أخشاب السقف تنتظر نجارة زاهي. بعد نجارته يأتي الأسمنت. بعد الأسمنت ننزع خيمة أم سمية. لا زالت الخيمة قائمة خلف البيت. صار فيها فراش وأوان. ينبعث من داخلها صوت راديو ناعم. لا زالت أم سمية متشبثة برائحة التراب الذي آواها في يوم من الأيام مع أبي سمية. وسمية تمدّ رأسها من فرجة الخيمة مستطلعة، تندفع خارجاً محيية، فيسأل رافع: متى قدمت؟ يدير زاهي رأسه متوقفاً عن الشغل. يحتضن جبر كفها الخشنة، ولا يخفي عجبه. أتكونين أنت أيضاً تشتغلين في.. في ماذا يا سمية؟

ابتسم زاهي. قال رافع: يا أخي، هي تشتغل في بيتها. ضحك جبر من أعماقه: كل من في جرماتي يعمر؟ مزج ضحكة أخرى بالعجب. توقف زاهي. قال رافع: تقريباً. قال أبو رافع وقد أبهجه البشر الذي طفح على محيا جبر: إذا كنا جمعاً عمارين، فأنت عمّار العمارين. خجل جبر وجمع أشتاته. عاد زاهي إلى ما بين يديه. عاد جبر إلى سمية، تملّى من وجنتيها الدقيقتين القمحيتين. ثمة زغب ناعم يكسو وجهها كله، راح يلتمع تحت أشعة الشمس التي انصبت عمودية فوقها. رفرفت أجفان سمية محتارة في نظرات جبر. انسحبت ضاحكة إلى جوف الخيمة. سكت صوت المذياع. خرجت أم سمية. خيل لجبر أن عبق الدم يفوح من هذا المكان الذي يصيح: ها هنا كل شيء قريب من الشهادة: سمية،

أم سمية، الخيمة، البلدوزر الاسرائيلي، البيت الجديد، الذراع المعمرة. كل شيء قريب من الحرب، الاحتلال، المقاومة، ولكن لا أثر للانسحاب.

انزاح عن صدر جبر الشعور المبهظ الذي يلازم ذكر الانسحاب. عادت سمية إلى الحلقة التي ضمت أمها مع جبر ورافع. تقافزت عينا جبر من وجه إلى وجه تسألان: هل تكون سلامة بعض البيوت والأرواح صدقة من صدقات الاسرائيليين؟ ما الواقعية، المفاوضات، الفذلكة،السياسة، الحرب؟ أجابت ببهمة وصخب أصوات قادمة من الشارع الاسرائيلي.التفتت الأعناق جميعاً: الشيخ محب يتوكأ على عكازه اللامع. المختار يحاذيه. لم يتوقف من الشغيلة أحد سوى زاهي. ألقى البرزغل التحية. أردف الشيخ محب سلامه الطويل بدعاء طويل، شأنه في لقاء ذوي الشأن دوماً. سأل المختار عن العمل، فقال جبر: عال. انسحب بشير وتأخر رافع. سأل المختار جبراً عما إذا كان يريد مساعدة، فنفى. سأله عما إذا كان قد قرر أمراً بخصوص أي بيت، فلم يرد. اربدت سحنة المختار. صلّى الشيخ محب على محمد حبيب الله. تبسم زاهي. تفل بشير في التراب بين قدميه. اختلس رافع نظرة اشتهاء من سمية. انسحبت أم سمية. قال المختار: واجبي يفرض عليّ هذه الأسئلة، فلا تؤاخذني يا أستاذ. أمعن جبر في سكوته. فرطت حبات العرق عن جبهة المختار. قال الشيخ محب: الواجب يقضي بابتداء الشغل في المئذنة، وصلى على حبيب الله. قال جبر متخلصاً: لن نترك شيئاً، اطمئنوا. سأل المختار ملهوفاً: أين نبدأ يا أستاذ؟ قال جبر نافذ الصبر: بدأت ببيت بشير القصاب وانتهيت من بيت الرقيب غالي، وها أنا الآن هنا. قال الشيخ محب منقلاً عكازته من يد إلى يد: بيت اللّه أولاً يا أستاذ. ينبغي أن نوسع المسجد. بحث جبر عن سمية فلم يجدها. اختفى رافع أيضاً، عاد زاهي إلى الشغل بحماسة: قال جبر: الشتاء لم يعد بعيداً، وينبغي أن نؤمن ما يؤوي الناس. قال الشيخ محب بصوت خطابي: بيت الله آوى الناس في الحرب، فكيف في السلم؟ زفر جبر طويلاً، ودار حول نفسه. ألفىٰ سواد عيني سمية خلفه يتقد. جازته شفتاها بابتسامة سخية. عاد

إلى الشيخ هادئاً، كأنه لم يكن موشكاً على الانفجار قبل ثوان، وقال: نؤجل المسجد حالياً. نكس الشيخ محب عمامته، فيما أسرع المختار:

– نذهب إذن إلى عمارة السكامنة. هناك شغل كثير، وهي صارت كما قلت لك أمس للحكومة، وربما نستفيد منها إذا..

قاطعه جبر بغلظة:

– هؤلاء أهم.

وأشار إلى الخيمة والبيت الجديد، فبحث المختار عن عمامة الشيخ. أجال الشيخ عينيه المغيظتين في سائر الوجوه. توقف الشغيلة يرقبون، ضحك زاهي. اتقد سواد عيني سمية. توقف صوت المذياع في الخيمة. ظهر رافع إلى جانب أبيه. انصرف المختار والشيخ محب دون كلمة وداع، تعوذ جبر من الشيطان، وتقدم حانقاً، وسرت همهمة لم تلبث أن التبست بالضحك .

(4)

تكومت أكياس الاسمنت في طرف الساحة الذي بعجه الشارع الاسرائيلي. جثمت قرب الأكياس شاحنة السكانيا الضخمة. في الوسط تمددت رزمات غليظة من قضبان الحديد المتفاوتة الأقطار. لم تعد الساحة تتسع لموطىء قدم. أمام القضبان وقفت شاحنة أخرى عسكرية روسية من موديل قديم. حول الأكياس، فوق القضبان، تحت الشاحنتين: انتشر الأولاد يتصايحون. دكان بيزو مليء بالرجال والأصوات. على سطح المدرسة وقف جبر والمهندس الجديد ناهض خلوف. قرب باب المدرسة المفتوح على مصراعيه توزع رافع، زاهي، تامر، أبو رافع، ابن الشيخ محب، وعدد آخر من الكهول والفتيان. في أيدي بعضهم فؤوس، معاول، مطارق، مسطرينات للتطيين، أدوات أخرى كبيرة وصغيرة مما يستعمل في الحفر، التعمير، قطع الأشجار، صب البلوك، الاسمنت.

الأدوات ملطخة، قديمة وأغلبها تالف، والصياح في كل ناحية على أشده.

قال رافع: لماذا لا ينهى جبر كل شيء؟ قال ابن الشيخ محب: لا يستطيع، رتبة ناهض أعلى، ولوح بالمسطرين. همس أحد الفتيان محاذراً: منذ متى تعمل بالمسطرين؟ بادله الهمس الحذر فتى آخر: ليس المهم أنه يعمل أولا يعمل، المهم أن يسجلوه في قوائم العمال، فتصبح أجرته أكبر، وفرك إبهامه فوق سبابته، مشيراً إلى العملة. قال جبر: لا زلت مصراً على موقفي. قال ناهض: أنا المسؤول الأول هنا. أطرق جبر واعترف أن ناهض خلوف ملازم أول، متطوع، قبل أن يكون مهندساً. وربما اعترف أن جبر رزوق مهندس قبل أن يكون ملازماً، وهرع يعد الأسابيع القليلة المتبقية من الخدمة الإلزامية. رفع رأسه منهمكاً، جالت عيناه فوق أسطحة جرماتي: أسطحة طينية وأسطحة اسمنتية. أسطحة مسيجة وأخرى بلا سياج. فوق بعضها عرازيل صيفية، أوانٍ صغيرة وكبيرة طافحة بما يهيء الناس من مؤونة الشتاء. ندم على أمنيته بالخلاص السريع من الخدمة الإلزامية. سوف يضطره ذلك إلى أن يغادر جرماتي. لن يعاين إذن جزءاً من حلمه يتحقق فيها. وكان ناهض يقول: وسوف أنزل أيضاً في بيت المختار، والأفضل لك أن تتبع نصيحتي. قال جبر: طوال عمري أخدم نفسي. المهم، ما دمت مصراً، فلنبدأ بالمدرسة. قال ناهض: لا تعد إلى الموضوع من جديد. هذا قرار.

أخرج ناهض من جيب بذلته العلوي علبة السجائر. تناول منها واحدة، ثم قدمها لجبر: البيوت ليست ضرورية مثل المدرسة. المدرسة ليست ضرورية مثل عمارة السكماني. أعاد ناهض العلبة إلى جيب البذلة الآخر. مسّد فوق غطاء الجيب برقّة متناهية قطعة صغيرة مثل الفرنك، لكن اصفرارها أشد لمعاناً. عدّ جبر النجوم التي تلمع على كتفي ناهض. أوشك أن يقذف بضحكة تفرغ كل ما احتبس في صدره منذ أكثر من ساعة. نجمتان على الكتف الأيمن، زر أصفر، رأس مستطيل، سالفان طويلان، شعر غزير لامع ونظيف كحاجبي ممثلة من الدرجة الدنيا،

وجنتان ناعمتان مشربتان بحمرة خفيفة، لا أثر للزغب فوقهما، أنف متطاول ذو فتحتين ضيقتين نظيفتين ومحمرتين من فرط مداعبة الإبهام والسبابة لهما. زر أصفر آخر على الكتف الأيسر، نجمتان أخريان، ثم ماذا؟

أهذا كل شيء يا ناهض؟ الحكومة ستحول عمارة السكماني إلى مدرسة كبيرة، مستوصف، جمعيات، الله أعلم ماذا أيضاً؟ ليت ذلك يكون حقاً، لكنه هذر مَنْ يا ناهض؟ تلقفت ترجيح المختار، استحال الترجيح على شفتيك أمراً محتوماً. تلقف المختار نوايا الأستاذ قبلان. استحالت النوايا على لسانه حقيقة، وقال ابن الشيخ محب: إذا لم يقرر الآن أن يبدأ بالمسجد، فسوف يقاطعه والدي. قال زاهي: ألا يكفي والدك حتى جئت أنت؟ قاطعوا يا سيدي وبلطوا البحر. قال ابن الشيخ محب بثقة واعتداد: يا سيدي سوف نبلطه. الملازم ناهض خلوف يقدر كل شيء حق قدره. وأردف ابن الشيخ محب مبالغاً في الهمس: هو من جماعة الأستاذ قبلان إذا كنت لا تعلم. أجفل زاهي، وأشهر ذراعه على ابن الشيخ محب. وكان ناهض يقول: نستطيع أن نبدأ في عشرين مكان دفعة واحدة. ما بك؟ قال جبر: لماذا تعقد أمور الشغيلة إذن ؟ قال ناهض: لا أنت ولا أنا نعرف جرماتي جيداً. سآخذ برأي البرزغل، برأي الشيخ، ولا تزعل، سآخذ برأي أصحابك أيضاً. قال جبر: أصحابي والمختار و.. قاطعه ناهض: لم تذكر لي إلا الذين يتعوذ منهم المختار والشيخ قبل الشيطان. أصحابك طماعون فيما يبدو. يريدون أن يبدأ التعمير في بيوتهم. يريدون أن يشتغلوا وحدهم. ماذا ستكفي أموال الدولة يا جبر؟ واتجه إلى الدرج الذي كسرت حده الصناديق الكبيرة التي كان الاسرائيليون يضعونها على السطح. ارتطمت عينا ناهض بالصفرة التي خلفها البول في الزاوية التي ينعكس اتجاه الدرج عندها. تقزز من قذارة الاسرائيليين. مسد بياطن كفه على البنطال، فوق عضوه. هبط الدرجة الأولى في الاتجاه المعاكس. الاسرائيليون متحضرون فكيف فعلوا ذلك؟ هبط الدرجة الثانية. أيكون الملازم جبر؟ ضحك. لكنه بول قديم.

هبط درجة أخرى، الخروج إلى البرية في الشتاء مصيبة. كان الله في عونك يا جبر إذا قضيت شتاءك هنا، وليس من مرحاض. مدّ أصابع يمناه إلى ما بين إليتيه وحك بقسوة. هبط درجة جديدة. لعل الفزع كان يحتجزهم في الليل فيقضون حاجاتهم في المدرسة، على المقاعد مثلاً، فوق طاولة الأستاذ، فوق الدرج، السطوح، وهبط الدرجة الأخيرة يقهقه. تصفح وجوه الرجال المتجمعين قرب باب المدرسة. لم يتعرف على أحد منهم بعد. بحثت عيناه عن أصحاب جبر. غذّ خطاه إلى الدكان: سوف أدعو المختار إلى مرافقتي. ليفعل جبر ما يحلو له. سوف أؤجل البت في تعيين الشغيلة. يجب أن نبدأ بالعمارة، مدرسة، دوائر حكومية، خلافه، لن تستطيع يا جبر أن تزاود عليّ. سوف يكون سرور السكماني مضاعفاً. سوف تترسخ ثقتهم جمعياً بي. وفاهية؟ فاهية التي أوصتني بجرماتي خيراً. هل ستأتين حقاً يا فاهية؟ هل تفين بوعدك؟ كيف أستطيع أن أكافىء أباك؟ كيف يمكنني أن أرد له جميل تلك الدعوة التي جمعتني بك؟ متى كان يحلم ناهض الخلوف أن يدخل إلى ذلك القصر؟ قصر، وحق رأسك ، حتى العمارة في جرماتي تبدو قصراً. أينما حللت يا فاهية تشاد القصور. سوف يعمر لك ناهض الخلوف أروع قصر. لكن ظله سبقه في الدخول إلى الدكان، فصمت الرجال وانتظروا. ظل ناهض واقفاًفي فرجة الباب الضيق الخفيض. كاد شعره أن يلامس أعلى الباب. نادى المختار وخاطبه بلهجة عسكرية:

- رافقني إلى العمارة.

ازدادت أجسام الرجال التصاقاً. تمايلت صفوفهم المختلطة يميناً ويساراً. لا كلمة عن الشغل، لا كلمة عن ترتيب الأدوار. أمر لسائق الشاحنة الروسية بالانتظار. أمر لسائق السكانيا بالانصراف فوراً. أمر للأولاد بالابتعاد عن الاسمنت والحديد. وفجأة: يتفرق الأولاد، يتفرق الرجال، يتسابق بعض الأولاد إلى العمارة، يلحق بعض الرجال بناهض والمختار، يحافظون على فاصل مهيب، يلتفت بعضهم الآخر إلى الوراء: جبر يقف في فرجة باب المدرسة. يقف زاهي مواجهاً له. يحجب

الشمس بطوله الرمحي. أبو رافع يعاقب شعرات شواربه. رافع مقرفص وكظيم. وكان ناهض يزداد حماسة، فيما تتعاظم دقات قلب المختار.

لا يستطيع المختار المحافظة على موازاة الشاب. يدرك التعب مفاصل ساقيه، يكاد أن يبتهج لقرار المهندس الجديد. يستلّ التعب البهجة. يتملى من صفحة ظهر الشاب. يسلم بالعجز عن مجاراته. يسير خلفه لاهثاً ذليلاً. يتساءل قلقاً عما إذا كانت رياحه قد بدأت تهب. ينظر إلى الخلف فلا يميز أحداً من الرجال المشتتين اللاحقين: حتى النظر كلّ، وتطل العمارة على ناهض. تعرض ضحكته ويتوقف. قصر، وحياة رأسك يا فاهية. لماذا سميته بيتاً صغيراً؟ أليس حراماً أن يضيع أبوك هذا كله؟ ألم أقل ذلك قبل أن أرى حجراً في جرماتي؟ ماذا ستستفيد جرماتي منه؟ كان بوسعك أن تبيعه يا عم، أن تجعله مثلاً مقصفاً سياحياً، أن... وجرماتي سيكون لها مستقبل باهر. وافقيني يا آنستي الرقيقة. والدك يطرق هامته طويلاً. هل أنت نادم يا عم؟ سانحة العمر قد تركها لنا في إطراقته. ليطلْ ندمك يا عم. أنّىٰ لي أن أرتوي من الذراعين الملتفين بهذا القميص السماوي الشفاف؟ القميص يتلوى في طيات المرفق والكتفين، ينحسر عن الرقبة البضة، كيف اهتدى أبوك لي؟ لو لم يعينوني مشرفاً على مشروع تعمير جرماتي، لما كانت قادتني درب إليك. نصيب، وأنا أؤمن بالنصيب. حظ يا فاهية، وأنا صاحب الحظ. طوال عمري في حلف معه. لا يهم إنْ كنا التقينا مرتين من قبل أم مئة. لذلك ترينني واثقاً من مستقبلنا معاً. ما دام كل شيء لابد أن يكون كما نشتهي، فلماذا لا نختصر الزمن؟ لقد أرعبني لقاء أبيك الأول. جعلني أتعوذ من ذلك الصباح. كان يسترخي في مكتب قائدنا. المهابة التي تطفح من ذلك الوجه لابد أن ترعب من يلتقيه أول مرة. بدا القائد لطيفاً منذ الكلمة الأولى، فخفف ذلك مما بي. اجلس يا ناهض، جلست. هذا هو السكماني إنْ كنت سمعت به. سمعت به وتشرفت. ماذا تريدين من ناهض أن يقول أيضاً؟ جرماتي قرية الأستاذ قبلان إن كنت قد سمعت؟ ومن لم يسمع يا سيدي؟ الراديو الجريدة الـ.. وقاطعني أبوك داعياً إياي إلى البيت. مدّ يده بتلك البطاقة التي قادتني إلى فاهية. فهمت

أن عليّ أن أنصرف. استدعاني القائد بعد ذلك وأوصاني. اغتممت وحسبت أنني سأواجه في بيت السكماني تلك المهابة التي واجهتني في مكتب القائد: ذلك الرجل الذي استطلعني من قمة رأسي إلى كعب حذائي، منذ وطئت غرفة القائد. لكن السكماني بدا رجلاً آخر. وانفتح باب إحدى الغرف الكثيرة عنك. تعال يا ابني، أنت صرت من جرماتي، صرت واحداً منا. رحماك يا رب. من أين جاءني هذا النسب الجديد؟ من هي هذه المرأة؟ ينفتح باب ثان. تدخل سيدة مبهرة. رحماك يا رب. من تكون هذه ومن تكون تلك؟ قلّبْ عينيك يا ناهض بين الأم وابنتها. الست خالدية يا ابني، وهذه أختك فاهية. من أين جاءني هذا النسب يا عم؟ حظك حليفك على الدوام يا ناهض خلوف. أسرعْ إلى جرماتي أسرعْ. أسرعْ إلى عمارة السكماني التي دمرها الاسرائيليون. لا يهم إنْ كان السكماني قد تبرع بها للحكومة أم لا. الدور السفلي. اصعد الدرج المفروش. طفْ في أنحاء الدور العلوي، الغرف العارية، الأبهاء، الممرات، الزجاج، لا أثر للدمار، هل تكذب عينيك أم تكذب السكماني أم تكذب قائدك؟ أين الدمار يا مختار؟ يتقدم البرزغل إلى المستودعات في الوجه الخلفي للعمارة. الأبواب مشرعة وبعضها مخلّع. العري أيضاً في كل مكان. قطع كبيرة من الأسمنت السملح مرمية على الأجناب. سقوف كثيرة تكاد أن تكون منزوعة بأكملها دون أن تخدش. ناهض يقف على مقربة يتملى. قارنْ بين العمارة والمستودعات. لا حاجة لك يا عم بهذه المستودعات كلها، خصوصاً أنك تبرعت بـ.. والأوفر لك ولنا أن نستغني عنها. سوف نستفيد من هذه الأسقف شبه السليمة. سوف نستفيد من الأحجار، الأبواب، الحديد، لكنك كنت شديد الحرص عليها، لماذا يا عم؟ لماذا يا فاهية؟ هل تغضب يا سيدي لو فاتحتك بذلك؟ قائدنا يغضب؟ فاهية تغضب؟ لا ياناهض الخلوف. سوف أعمر أفضل مستودعات في سوريا، فلا يغضبن أحد يا مختار.

وأجفل المختار على صرخة ناهض، فقفز سائلاً:

– ماذا أمرتم؟

(5)

دلف ناهض إلى بيت البرزغل. امتلأ صدره بعبق الطعام الذي يفوح من كل مكان. طاولة خفيضة، بالغة الطول، تتوسطها صينية كبيرة مغطاة بالرز. ديك حبش يتوج الصينية. صحون صغيرة كثيرة ملأى بأصناف مختلفة من المرق واللبن والتفاح، وثمة في ركن من أركان الطاولة زجاجة عرق وزجاجة نبيذ. هتف ناهض وهو يخلع حذاءه:

– لمن هذا كله يا حاتم الطائي؟ يكفي عشيرة!

تهدج صوت البرزغل:

– ليته يليق بالمقام.

وداعب شاربيه معتزاً. تربع ناهض في الصدارة، واستطلع بلمحتين الطاولة وزوايا الغرفة الفسيحة المشمسة. مدّ أصابعه يتلمس فخذ الديك، قال البرزغل:

– هذه ستكون غرفتك.

ورفع نظره إلى السقف الاسمنتي مردفاً:

– وحدها مسقوفة بالإسمنت، باقي البيت تراب.

همهم ناهض وهو يعض فخذ الديك:

– أنا أفهم من الإشارة يا مختار.

هش البرزغل:

– واللبيب من الإشارة يفهم.

لم يدعه يكمل، امتزجت كلماته بنثار ملاعق اللبن المتتالية:

– قلت لك سأسقف البيت قبل الشتاء يعني سأسقف. كلمة ناهض لا تصير اثنتين.

لهج البرزغل بدعاء حار، واستدار إلى الباب منادياً البرزغلة في أمر

ما. أربكته كلمات ناهض، جعلته ينفلش كطفل سعيد. دخلت البرزغلة تلهث، وارتسم وراءها شبح آخر، لم يرفع ناهض رأسه. قال البرزغل مصطنعاً الغضب:

- من خلفك؟

استدارت البرزغلة مجفلة. ظهر بيزو يلهث. بادرهم قبل السلام:

- أين أنت يا مختار؟ أين أنت يا سيادة الضابط؟ الأُستاذ قبلان والسكماني، الست، كلهم شرفوا، وينتظرونكم في العمارة.

هب ناهض واقفاً. جمدت اللقمة في حنكه. انلجم المختار. ما الذي جاء بهم الآن؟ عدّ ناهض على أصابعه المغمسة بالمرق الأيام التي انقضت على مفارقته لهم. أتكون فاهية أيضاً؟ من هي الست؟ تعال يا بيزو وعدّهم ثانية. جرع كأساً كبيرة من النبيذ دفعة واحدة. شهقت البرزغلة مصلية على النبي. حدق ناهض في المختار المضطرب، ثم هتف به:

- تدوم يا مختار. لا يليق أن نجعلهم ينتظرون، ونحن على هذه الطاولة.

نقل البرزغل نظره بين الطعام وامرأته. اختلط في قرارته الأسف والجوع ووقع المفاجأة. شتم البرزغلة ولحق بناهض وبيزو. قطع ناهض المسافة الفاصلة بين بيت المختار والعمارة في دقائق قليلة. عجز المختار عن اللحاق به. رحب السكماني بناهض ووقف له الأُستاذ قبلان. دارت عينا ناهض في الوجوه الأُخرى باحثة عن فاهية. هذا هو جبر إلى يسار الأُستاذ قبلان، يحتضن مصنفاً، لا يقف ولا يسلم، ينسى العسكرية، فهل هو أكبر من الأُستاذ قبلان؟ أين الست خالدية؟ أين فاهية؟ متى سبقتني يا جبر؟ هل حرموك غذاء فاخراً أيضاً في بيت بشير القصاب؟ هل حدثتهم في شيء مما دار بيننا؟

قال الأُستاذ قبلان:

- علمت أنك نظمت كشوفات المستودعات. عافاك الله يا ناهض. أنت نشيط فعلاً كما وصفوك لي.

لملم ناهض أطرافه. أحرجه ثناء الأستاذ قبلان. استرق من جبر نظرة خاطفة. باعد جبر بين شفتيه مطلقاً بسمة هزء صغيرة، دون أن يرفع رأسه عن المصنف.

اتجه السكماني إلى جبر:

– فلنكمل حديثنا. ها قد جاء ناهض. هذا الموقف منك لا يرضي.

نغّم الأستاذ قبلان صوته:

– نحن إذا كنا نكافيء النشيط قليلا نستطيع السكوت عن سواه. لا تبدأ معنا هذه البداية. هذه نصيحتي. رئيسك يسألنا يومياً عنك وعن زميلك.

اندفع البرزغل:

– قلنا له ذلك وأكثر يا أستاذ. أمس قلنا واليوم، ومرة يحتج بالمدرسة، مرة بالفقر، مرة بالشتاء.

قاطعه الأستاذ قبلان:

– موضوع المدرسة انتهى.

رفع جبر وناهض والبرزغل رؤوسهم مستفسرين. أردف الأستاذ قبلان فوراً:

– الحكومة تقدر أكبر تقدير ما بدر من العم حين تبرع بالعمارة. لقد رجونا العم كي يظل محتفظاً بما تفضل به. الحكومة ستبني جرماتي كلها. سوف يشمل هذا حتماً مدرسة وسواها. نحن في جرماتي حريصون على أن يبقى العم بيننا. بل إذا اضطرنا الأمر، فإننا مستعدون أن نعيد له كل الأراضي التي راحت. أليس كذلك يا مختار؟

وضحك. حرك المختار شفتيه ببلاهة. اختلط في سمع جبر ما انطلق به أكثر من لسان. قال ناهض:

– ألم أقل ذلك في أول مرة تشرفت فيها بزيارتكم؟

قال السكماني:

– هذا ما كان على كل حال يا بني. أردت أن أقدم لجرماتي

وللحكومة هدية، بمناسبة الانتصار العظيم، لكن الأخوان ارتأوا هذا الرأي. جرماتي عزيزة وهم أعز.

تناهى إلى الأسماع وقع حذاء نسائي يتهادى خلفهم. تضاعفت دقات فؤاد ناهض. رفع جبر رأسه وتلفت يستطلع. اقترب وقع حذاء نسائي ثان. ظهرت الست خالدية. ظهرت فاهية خلفها. التفت الأستاذ قبلان بتؤدة. ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة. هتف المختار واقفاً:

– أهلاً ستنا. أهلاً بالعروس.

ألقت الست خالدية التحية، جلست قبالة زوجها في قلطق عريق. همست فاهية بتحيتها المنغومة، ووقفت إلى جانب أبيها. قال الأستاذ قبلان:

– فور الانتهاء من المستودعات تبني يا ناهض فيلا على التلة الشرقية، قرب نقطة الألغام تقريباً.

هز ناهض رأسه ملبياً. نقل الأستاذ قبلان عينيه بين الست خالدية وزوجها وابنتها مبتسماً. أوشك جبر على الانفجار. قال بصوت محموم:

– اسمحوا لي إذا قلت إنني لا أفهم شيئاً.

خيم صمت متوتر قصير. قال الأستاذ قبلان:

– ما الذي صعب عليك فهمه؟

ووشت كلمته الأخيرة بالسخرية. قال جبر:

– إذا كانت حجة المدرسة وسواها سقطت، فما سبب تقديم المستودعات هنا؟ بل ما الحاجة إليها؟ والفيلا نباشر بها أثر المستودعات. اسمحوا لي إذا كنت صريحاً زيادة عما يلزم: متى نعمر جرماتي؟

أرخى السكماني ظهره على مسند القلطق، وقال كاتماً غيظه:

– أنت لا تحتمل لا.. ما هذا الكلام يا أستاذ قبلان؟

بحث ناهض عن عيني فاهية، فألفاهما تنصبان فوق رأس جبر. قال ناهض:

– اسكت يا ملازم جبر ودع هذه الأمور لي.

انتفض جبر:

– حيرتموني. لم أعد أعرف ممن أتلقى الأوامر. كلكم صرتم رؤوسائي؟

وقف السكماني صائحاً:

– نحن نأمرك ونأمر رئيسك.

وقف جبر، المختار، ناهض، الأستاذ قبلان الذي قال:

– نحن الذين نعمر لا أنت. واجبك أن تنفذ وتسكت.

وقفت الست خالدية. اضطربت أجفان فاهية ملاحقة أفواه الرجال. قال البرزغل:

– صدقت ظنوني يا سبحان الله. منذ سألني عن بشير القصاب وفلان وفلان، قلت هذا الرجل لا يصلي على النبي.

قال ناهض وهو مقبل على السكماني وفاهية:

– لا تغضب يا عم أرجوك. كل شيء سيكون كما ترغب، تفضل.

قال الأستاذ قبلان:

– تستطيع يا ملازم جبر أن تجمع حاجياتك وتترك جرماتي فوراً. قل لرئيسك: الأستاذ قبلان أعادني إليك مشكوراً.

هز جبر المصنف في وجوههم وصاح:

– لن أترك جرماتي على هواكم. لن تعمروها على هواكم.

واندفع خارجاً مخلفاً جلبة عالية من الوعيد والترضية. واتجه إلى المدرسة مهتاجاً، يستعيد كلمات الأستاذ قبلان، كلمات السكماني، ناهض، وهياجه يتضاعف حتى عدل عن الذهاب إلى المدرسة، واتجه إلى بيت بشير القصاب.

كان البيت يضيق ببشير وابنه، وزاهي وسمية وأمها التي صارت تغادر الخيمة غالباً. توزعت كؤوس الشاي الفارغة فوق سطح الطاولة. انعكس ما في نفس جبر على وجوههم قبل أن ينبس بحرف. أثنوا على جرأته. تحمس رافع وسمية. هدأت نفس جبر. قالت أم سمية حزينة:

- لكنك ستغادر جرماتي يا ولدي.

بوغتوا جميعاً، ساد صمت يستنكر. أردفت أم سمية:

- أنت عسكري ولا تستطيع أن تقول لا. هل ستلتجىء هنا؟

حاولتْ أن تضحك. أطرقتْ بعض الرؤوس. نضح محيا جبر بقهر مريع. قال أبو رافع كأنما يرثي:

- لا نحن نستطيع أن ننفعك، ولا أنت تستطيع أن تنفعنا.

بدتْ سمية مثل عصفور ذبيح. أركز جبر عينيه في عنقها فاختلجت. نقل رافع عينيه بين زاهي وجبر وسمية وأم سمية. قال زاهي:

- هل نحن في مأتم؟ هم يضحكون، ونحن على هذه الحالة؟ فليذهب جبر الآن كما أرادوا، ولكن لابد أن يعود يوماً إلينا. هل تظن يا رجل أننا نتركهم يفعلون ما يحلو لهم؟

وضحك، فضحكت أم سمية، ورفرف جفنا سمية، ولم يغادر جبر عنقها، حتى أردف زاهي متحمساً:

- هم سيعمرون ونحن سنعمر، وسنرى لمن تكون جرماتي.

(6)

وأخيراً حلّتْ ساعة الفراق. وصل تراكتور السكماني. حسرة قاتلة وسع جرماتي تنشب في حلق جبر. كيف يخلو بسمية؟ أين يمكن أن يلاقي ناهض، المختار، الأستاذ نفسه؟ كيف ينقع غلة الفؤاد قبل أن يرحل؟ هبّ رافع وتامر لملاقاة التراكتور. لحق بهما زاهي يحمل شيئاً صغيراً من أشياء جبر. ملصت ساعات النهار بين مزاحات زاهي والحزن المقيم. غادروا بيت بشير إلى المدرسة يهيئون ما في غرفة جبر للرحيل: المحفظة الصغيرة، الثياب العسكرية، المدنية، الراديو، الفراش العسكري، السرير العسكري، مجموعة من الأقلام والمساطر والأوراق الميلمترية،

جداول الكشوفات، مستندات قليلة، وأودع جبر بعض أشيائه لدى زاهي، كي ينقلها فيما بعد إلى ناهض. وقفز عدد من الرجال من على جانبي سائق التراكتور، من صندوق التريللا، وعلا لغطهم حول التراكتور. التفت جبر إلى مركز اللغط. علا صوت زاهي رامياً ما في يمينه أرضاً، منطلقاً نحو التراكتور:

- انظروا معي هل هو نايف أو أني...؟

فغرت أفواههم وارتد جبر مجفلاً، تراصت الحلقة حول التراكتور. غاب زاهي في غمرتها. انطلق بشير من مكان ما نحو الجمع مزاحماً. سار جبر متثاقلاً، ضاع بين الفرحة بقدوم نايف، والحزن الذي ازداد قتامة وإبهاظاً. لم يكن قد التقى نايف من قبل، بيد أنه سمع عنه كثيراً. في الحورانة، في الشام، واليوم في جرماتي. وإذن هذا هو الذي أشعل عود الكبريت يوماً في المنطقة كلها. هذا هو الذي عمل أجيراً في عشرين فرن في لبنان! هذا هو الذي قرأ عشرين كتاباً، فمن قتل عشرين سنة من شبابه؟ أين عمر يا نايف؟ أين سلوم وأبو سمية وفضل؟ أين من جعلوا السكامنة يرحلون عن جرماتي؟ أين من شقوا طريق السيارات، عمروا المدرسة، ثم..، ثم جاءت الحرب، بعدها الحرب، بعدها جرماتي، بعدها زاهي، رافع، تامر، وجبر رزوق أيضاً، وبعدهم دمار، بعدهم عمار، وهاهو نايف خرج من سجنه. لا تسافر يا جبر. جرماتي سوف تفرح الليلة، الأولاد يدفعونه يمنة، يسرة، يحشرون أكتافهم النحيلة بين أفخاذ الرجال الصلبة. إلى أين تتحرك هذه الكتلة الهائلة من البشر؟ هذا صوت زاهي ينادي، صوت تامر، يتلفت جبر، يعود الصوتان مراراً، يرد جبر بكل ما في صدره من هواء، يرم رأسه بصعوبة في أنحاء الحشد، يلمح ساعداً عارياً يلوح له، أخذ الساعد يتقدم نحوه بمشقة. غاص جبر في لجة الحشد، صار يتمايل كيفما دفعته قوة القوم، ضاق صدره، ضاعت منه بعض الأشياء الصغيرة، داست أحذية كثيرة على قدميه، توقف به الزمن حتى اصطدم دون مقدمات صدره بصدر زاهي. سمع صوت زاهي الجذلان، وهو يمسك بيد رجل آخر مبهم الملامح:

- هذا نايف، ابق معنا الليلة. وهذا جبر رزوق.

لف جبر صدر نايف بذراعيه صائحاً:

- سأبقى.

وأقبل يعاين العينين الفائرتين المتقدتين. يقاوم كي لا ينفصل عن نايف وزاهي، يدقق في الجبين الذي حفرته الخطوط من أقصاه إلى أقصاه: الشعر منسحب إلى الخلف، يكشف عن قرنين صغيرين من الصلعة القادمة، الشاربان الكثيفان اللذان احتفظا بقليل من الشعرات السود. الرقبة الناحلة التي تكاد أن تتشقق جلدتها، الثياب الحائلة، القديمة، علائم السجن أينما حط النظر. كم سنة؟ كم شهراً؟ كم يوماً؟ كم ساعة؟ اهترأت عظام الست منيرة، باع السكامنة كرومهم، أراضيهم، تركوا المنطقة كلها، جاء الاسرائيليون، وراحوا، جاء الأستاذ قبلان، جاء الجنرال ناهض، ونايف في السجن! فهل يتجه نايف إلى مجلس هؤلاء؟ لا يزال مجلسهم ملتئماً يا نايف. سوف يشبون هلعين، سوف يعضّون ألسنتهم: هذا هو نايف، بشفاعة، بدون شفاعة، خرج من السجن، هذا هو يا أستاذ قبلان، هذا هو يا سكامنة، هل نسيتموه؟ لم تتبرعوا بالعمارة والمستودعات إذن؟ هل من نية في استعادة الكروم والأراضي؟ هذا هو نايف يا جنرال. إياك إذن أن تتورط، قد يجعل عظامك تستقر بجوار عظام الست منيرة. لقد انفردتم بجبر يا سادة، ها هو جبر مع نايف، مع رفاق نايف، فهل من يعيد عليه ما قيل منذ قليل؟

(7)

دار موكب نايف في أنحاء جرماتي. زار أمه التي كانت قد قابلته في السجن منذ فترة قصيرة. زار أم سمية في الخيمة. صاح بسمية: صرتِ صبية يا ملعونة. زار قبر أبي سمية. سلّم على بربهان التي قدمت له رضيعتها معتزة. زار موقع الدبابة في المطل. عاد إلى بيت بشير

القصاب. عبر بالعرجا وعزاها بوفاة الشيخ عبد الستار. سأل عن سلوم فيما كان التراكتور قد عاد. غادرت جرماتي سيارة الأستاذ، سيارة السكامنة، تمازج في نفس جبر القلق بالإحساس المتعاظم بالسعادة. سوف يتصل الأستاذ بالقائد الليلة. سوف يتصل السكماني أيضاً. خرج نايف من السجن ليدخله جبر. غارت السعادة. بارح مجلس نايف باحثاً عن سلوى في الفضاء. لم تبد في السماء غيمة واحدة. سماء صافية زرقاء تغسل الروح. زفرة طويلة في أنحاء الأفق. ثمة أشجار وتلال ووهاد وخطوط متقطعة ترسم المسالك والطرقات. نقاط متناثرة في كل مكان: أيها يكون قرى، مزارع، مخافر للبوليس الدولي، نقاطاً سورية، نقاطاً اسرائيلية؟ هذه هي جرماتي، هنا قبر أبي سمية، نقطة الألغام، مربض الدبابة الدارس، بيت غالي، بيت العتال، بيت أبي سمية القديم، الجديد، هناك بيت تامر، الجرن، المقبرة، سطح المدرسة، سنديانات الشيخ ابراهيم، بيت الشيخ عبد الستار، قفا بيت ديوب، بيت الشيخ محب، المئذنة المقصوفة، أطراف العمارة، بيت شقيقة بربهان، بيت بشير، هذه هي جرماتي، هذا هو الأفق، العينان تلوبان ورغبة جامحة بالانفراد. والقدمان تقودان في الدرب المؤدي إلى بيت أبي سمية، أين أنت يا سمية؟ ونداء سمية يصعق:

- أراك وحدك يا أستاذ جبر؟ أين الشباب ؟

- من أين طلعت بك الأرض؟ إنسية أم جنية؟

- تعبت، قلت أتمشى على الطريق.

سمية باسمة على الصدر. كيس صغير من الورق، وجبر يتلعثم، لكنها تنقذه مغرغرة:

- شباب جرماتي يتمشون مساء على طريق الجرن، وليس هنا.

وسمية تتقدم بخطى متسارعة طويلة. جبر يفسح خطواته، يوازيها. يحرف زاوية عينه اليسرى، يظهر الكتفان المتساويان المتلاصقان، يديم النظر في صفحة خدها، يعاوده الغم، يدير وجهه مناجياً:

- هل أقدر على السفر غداً يا سمية؟ كنت أمنّي نفسي في جرماتي لولا..

قالت مقاطعة:

- هل ينقض ذهابك الأماني؟

تجددت حماسته، فتح عينيه على نهاية الدرب التي يسلكانها. بوغت وتوقف هامساً:

- ماأقصر المسافات هنا! أتمنى أن نسير معاً أيضاً. ماذا كنت تقولين؟ سمية، والله أنا أكنّ لك وداً كبيراً.

نقلت الكيس الكبير بين يديها. وقفت إزاءه. تمعنت في أطراف أصابعه وأذنيه. ومضت في المخيلة صور خاطفة متتالية لكثيرين . لم تجد فيهم من يشبه الآخر: وجه طويل، وجه مربع، وجه غليظ، وجه نحيف، وجه كهل، وجه منشرح. ارتسم في صفحة العين وجه زاهي، تفرست في وجه جبر. رفعت أجفانها، اختلطت الصورتان، أغمضت مكابدة. عاد وجه زاهي يملأ الكون، قالت بعد لأي:

- وأنت عزيز علينا كلنا.

مد أصابعه نحو الكيس متردداً، قال:

- أشكرك يا سمية، ولكن اغفري لي. هل فهمت ما عنيت؟

ناولته الكيس مبتسمةً، ثم دفعته في ساعده مستحثة:

- لنسرعْ إليهم.

(8)

افردْ يا ناهض مخططاتك على التراب. ضعْ على كل زاوية حصاة. الهواء في قمة التلة غدار. ريح خريفية باردة تغري بشتاء قاس. انْهِ يا ناهض عملك في التلة قبل أن يحل الشتاء. لن يشفع لك برد ولا ثلج

ولا عاطفة ولا ضعف. كيف يتوقف بناء الفيلا يوماً واحداً؟ بناء المقصف أيضاً؟ مشاريع الأستاذ قبلان تتفتق بالجملة. أنت مهندس أم متعهد أم منفذ؟ ماذا يحسبونك؟ ها هنا سوف يكون المنحدر الذي ستتغلب به على تعرجات التلة. التعرجات ينبغي أن تنقلب إلى أرض مستوية، وأنت العليم. سوف يزرع المنحدر بالحشائش كي يثبت ترابه وتتبرج الفيلا. إلى اليمين سوف تقوم البركة الكبيرة، الأستاذ يريدها مسبحاً. التعرجات تعجزك. سوف يتكلف المسبح يا أستاذ قبلان ما يكفي لتعمير فيلا جديدة. المسبح ضروري يا ناهض من أجل الصيف. هل تظن أنني سأشتو هنا؟ عفوك يا سيدي. ناهض غبي على الرغم من فهمه الدقيق لكل ما تلمح به أو تصرح. اجعلْ في قاع المسبح أعماقاً متفاوتة. سوف يرضي ذلك أطفال الأستاذ المقبلين. أعماق للكبار وأعماق للصغار. أعماق للسباحين وأعماق للمبتدئين. بركة صغيرة ينبغي أن تتسع لكل شيء في علم السباحة. اجعلْ البركة بحراً، البحر فيلا، الفيلا قصراً ينوف على قصر السكماني، والسكماني يريد أن تصبح المستودعات فيلا، والعمارة قصراً، فهناك يا ناهض جدد الابهاء، اهدم جداراً، ارفع جدراناً، افتح نوافذَ، اغلق أبواباً، جددْ يا ناهض، عمّرْ، اسع، أنت نشيط، ذكي، محبوب، رئيسك يكافؤك، السكماني يكافؤك، الأستاذ قبلان، المختار، نادِ على مرافقك الذي اخترت من جرماتي كلها. تعال يا ابن الشيخ محب، اركزْ وتداً هنا، وتداً هناك، آخر في طرف الفيلا الأقصى، سوف نبدأ بالحفر في ذلك الطرف. لابد من حفرة كبيرة ثانية لتكون مستودع الفضلات، منتهى المرحاض والحمام والصنابير، لكن الفاصل بين الحفرة والمسبح ليس كبيراً. هل ترشح الفضلات بعد زمن طويل أو قصير، فتفسد لون المسبح، تزكم رائحته؟ تغرق السباحين بقذارتهم؟ لا تقلق يا ناهض. لن يقيم الأستاذ في الفيلا كثيراً، لن تعمر الفيلا بساكنيها. لن تكثر الفضلات، لن تمتلىء حفرتها سريعاً. ما ذنبك إنْ لم يكن في جرماتي مجارير؟ ما ذنبك إنْ كان الأستاذ آثر هذا الموقع الصعب؟ هل تحفر الحفرة خارج المنطقة التي حددها لك؟ هل تجر

الفضلات بالقساطل بعيداً؟ ها قد جعلك الأستاذ قبلان مهندساً للتوصيلات الصحية أيضاً. نادِ على ابن الشيخ محب ثانية. اضربْ بفأسك يا مرافقي العزيز. سوف يظل أبوك يدعو لي ما عاش. لم أخترْ من شباب جرماتي لمرافقتي سواك، فماذا يريد أيضاً؟ سوف تظل تدعو لي، ما دامت أجرتك تبذ أجرة كل من عينت من جرماتي حتى الآن. احفرْ هنا علامة للعمود الأول في فيلا الأستاذ، العمود الثاني، من في جرماتي يقف اليوم معنا يا ابن الشيخ محب؟ احفرْ علامة العمود الثالث، استقطبهم جميعاً نايف وزاهي يا أستاذ قبلان. أعرف أن ذلك لا يساوي قشرة بصلة. احفر العمود الرابع. سوف ترتفع الفيلا فوق هذه الأعمدة. ناهض صار خبيراً في رجال جرماتي ونسائها. كان جبر رزوق معهم أيضاً يا ابن الشيخ محب. ها هنا سيكون البهو المفتوح للشمس والأطفال والأراجيح، فوقه ستقوم الصالونات، الفرندات، مكتب الأستاذ قبلان، غرفة للنوم، غرفة للطعام، للتليفزيون، للتدخين، سجلْ طلبات الأستاذ يا ناهض. ارسم مخططاتك في الليل. افردها على تراب التلة في النهار. كل صباح يفاجؤك الأستاذ بطلب جديد. لماذا لا تتهيأ مسبقاً لكل خواطره؟ ابن الشيخ محب يعلن تنفيذ كل ما أمرت. ماذا بقي عليك؟ مئات الأمتار، وثمة ما ينادي إلى اليسار. لابد أن تجعل المشاريع كلها تسير سريعاً ومعاً. العمارة، الفيلا، المقصف الذي ينبغي أن يكون جاهزاً قبل الموسم القادم. درْ حول نقطة الألغام. ما من سبيل آخر بين الفيلا والمقصف يا أستاذ قبلان. لا تسأل عن الحكمة من ترك نقطة الألغام. كم شهراً انقضى بعد انسحابهم؟ أنت عسكري وتدرك معنى الأسرار. ألم ينتهوا بعد من تنظيف الألغام الأخرى التي خلفها الاسرائيليون في كل مكان انسحبوا منه؟ هل يتركون التلة أثراً من آثار الحرب، يسيل لها لعاب السواح؟ لا تفكر يا ناهض فيما لا شأن لك به. فيلا من هنا، مقصف من هناك، حقل ألغام، انسحاب، قبر أبي سمية، فكيف سيقيم الأستاذ قبلان وسط هذا كله؟ كيف يواجه القبر السواح وهم صاعدون إلى المقصف، أو هابطون منه؟ أي إحساس يعتريك كلما عبرت بالقبر؟

اسأل ابن الشيخ محب من جديد عن مسلك آخر يعيدك إلى جرماتي. البرزغل ينتظر، الغرفة، الدفء، الراحة، الطاولة، الأطايب، النبيذ الذي صنعته البرزغلة بيديها الـ...

(9)

قرفص ناهض فوق الدباقة الخفيضة التي تسور بيت المختار من الجهات الأربع. شرعت البرزغلة تسكب الماء على يديه. بيت المختار يحتاج إلى مغسلة وصنابير وخزان ماء. تسلل صوت البرزغلة خفيضاً ناعماً إلى أذني ناهض. لقد ألفت هذا الصوت. مفاصلي تكاد أن تنفك. لن أغادر غرفتي اليوم مهما حل بجرماتي. في حلقك بحة تذكرني بصوت فاهية. تبدين فاهية الكهلة. هل ستغدو مثلك بعد عشرين، ثلاثين، عاماً؟ لماذا لم أكن أراك هكذا منذ أول يوم نزلت هنا؟ أعماني البرزغل عنك. أعماني أولادك، طعامك، فاهية، المشكلات التي تتولد في جرماتي كالجراد. اللهم أرسل إليها الجراد وخلصني. وحدك صرت تعيدين لي رائحة الحياة، تشعرينني بطعم آخر غير المخططات والعمال والكشوفات وفاهية التي أكاد أيأس من لقاء آخر معها، ما دمت في جرماتي.

أخذت البرزغلة تدنو من ناهض، تبالغ في الإسرار صوت بالغ النفاذ، ترتعش له جلدة العضو. سها عن الماء والصابون. البرزغلة تذكر المختار: ابنهما المقيم في الشام، الموت، الخير، ولم يعد ناهض يميز حرفاً. شب واقفاً، تناول طرف المنشفة عن كتفها. ترك الطرف الآخر يتمسك بالكتف. مسح الكتف بنظرات متأنية. حطت عيناه على تجاعيد العنق اللدنة السمراء. ارتبكت البرزغلة. تنحنحت. رفع ناهض عينيه ببطء إلى محياها: وشم في قمة الوجنة اليسرى. علائم السمنة والكهولة، السمرة الفاقعة، والبرزغلة أشهى نساء جرماتي، أشهى من فاهية نفسها.

استسلمت البرزغلة لنظرات ناهض. استذكرت متلذذة النظرات

المماثلة التي أخذ يرشقها بها في الأيام الأخيرة. انتهى ناهض من مسح يديه. سوّى المنشفة فوق كتفها. مرّ بكفه قريباً من عنقها. ارتجفت وانسحبت مجفلة هامسة:

- ما بك يا...؟

تعثّرَ لسانها فغضت. رد ناهض مهتاجاً:

- ألا تعرفين ما بي؟

تراجعت خطوتين. نظرت حولها محاذرة. بلعت ريقها وقالت:

- ماذا لو رآك إنسان؟ أعوذ بالله. أنا مثل أمك؟

واندفعت إلى بيتها متعثرة. مرّ ناهض على صدره بباطن كفه نشوان. لبث واقفاً يخاتل عضوه الذي انتصب، يعده بالبرزغلة عما قليل، ثم اتجه إلى غرفته.

هب البرزغل وابنه واقفين يردان السلام. تصدر ناهض الطاولة كعادته. غفل عن جليسيه، أشاد البرزغل بابنه وأشاد بناهض. ذكر ابن البرزغل سمعة المهندس في الشام. كرر البرزغل أن ابنه يظل ابن جرماتي، على الرغم من إقامته في الشام، وهو يستحق المساعدة، وناهض قادر، ويده معطاء. أقسم ابن البرزغل أنه لابد أن يعود إلى جرماتي، مهما نأت به الأيام عنها، وأنه وريث أبيه الأكبر. هز ناهض رأسه، تشتت بين النبيذ الذي صنعته أم هذا، والطعام الذي أعدته امرأة ذاك. قال البرزغل: ابني موافق على كل شيء، وسيوقع الكشوفات حسب الأصول. هز ناهض رأسه هزة أخرى. قال ابن البرزغل متحمساً: يا سيدي إذا أردتم أوقع لكم على بياض. قال البرزغل: ابني مستعد لقبض التعويض ولا حاجة له حالياً بالتعمير. قال ابن البرزغل: يا سيدي مهما تكرمتم علي، فأنا ممنون. قال ناهض: حياك الله يا رجل، أنت شهم وتقدر الأمور حق قدرها. رحم الله والدك قبل أن يموت. نقل عينيه بين الرجلين هنيهة، ثم رفع كأس النبيذ عالياً، محيياً، وجرع منه جرعة كبيرة، ثم عاد إلى كلمات البرزغلة الأخيرة، ومشيتها المتعثرة العجلى و..

(10)

لن يجديك الانتظار يا زاهي. ابن الشيخ محب لن يعرّج على بيت أي منكم. الشغيلة يتقاطرون من كل مكان، وأنتم تتفرجون. ليس لعاب رافع وحده قد سال. تامر صار أيضاً يتساءل: إلى متى نظل قابعين هنا؟ حتى تنزل صينية الذهب من السماء؟ نصف رجال وأولاد جرماتي صاروا يشتغلون في ورش الحكومة. أصحاب البيوت المتضررة أخذوا بدلات التعمير. رافع يصر على أن يذهب بنفسه إلى ناهض، تامر لا يدعه يذهب وحده. هذا ما ينتظرونه يا إخوان. سيشمتون بنا. سيفرضون علينا شروطهم. ماذا تستطيع أن تفعل في مواجهة ذلك كله يا زاهي؟ ابن الشيخ محب يدور في القرى، في المزارع، يستقدم العمال، وورش الحكومة تتوالد يوماً بعد يوم: ورش كبيرة وورش صغيرة. ورشة في العمارة، وورشة في بيت البرزغل. ورشة في الجامع، ورشة في التلة، والشغيلة يتقاطرون. ابن الشيخ محب يتقاضى عن كل رأس عشر ليرات من البرزغل. البرزغل يمسك بنفسه سجلات الشغيلة، يقدر الأجور، يسلمها، يوقع العمال على الجداول، هل رأسك هذا رأس خروف؟ هل أنتم غنم؟ ناهض لديه من الشغل ما هو أهم. الجداول ليس فيها غير أسماء العمال، تواريخ العمل. الحقول المخصصة لتقدير الأجرة اليومية فارغة، حقول جداء ضرب أيام العمل بالأجرة اليومية فارغة. كل ما يتعلق بالأرقام فارغ. لم يعد في الأمر سرّ يا زاهي. العمال يلغطون. جرماتي تلغط. ناهض يملأ الجداول في وقت آخر. البرزغل يجول في جرماتي. والبيوت التي قام جبر وناهض بالكشف عليها، يخيّر البرزغل أصحابها: هل تقبضون قيمة الكشوف؟ هل تصلحون بيوتكم بأنفسكم؟ هل تفوضون الدولة بذلك كله؟ الدولة سوف تتأخر كثيراً. لديها من المشاكل ما يكفيها. لابد من إنجاز المسجد، المدرسة، المستودعات، الفيلا، المقصف، والشتاء قريب. البرزغل يخلص النصيحة. المراجعون يتوافدون على بيت البرزغل. البرزغل لا يعلن رقماً قبل أن يحصل على التوقيع. امرأة الشيخ عبد الستار تبصم على كشف حصتها،

ثم ترفض استلام المبلغ. البرزغل يشتمها صارخاً:

- طول عمرك يا عرجا تسكنين تحت سقف تراب، الآن صرت تتدللين على ذقني؟

العرجا تولول:

- ماذا أفعل بمئة ليرة يامختار؟ أشتري كيسين طحين؟ عشرة أكياس أسمنت؟ من أين أجيء بأجرة من يعمّر؟

البرزغل يقسم أنه لن يعطيها فرنكاً واحداً. يلوح ببصمة إبهامها في ذيل الكشف، ويجلجل صوته:

- اذهبي وانطحي حيطان بيتك الأربعة. قولي: أخذ المختار حصتي.

المراجعون الآخرون يستعطفونه. العرجا تنشج بصوت عال. المحتجون الآخرون يخرسون. وينقضي وقت طويل قبل أن يكور البرزغل ورقة المائة ليرة، ويقذف بها صدر العرجا. يتقدم بعدها ديوب منكساً هامته. منذ متى لم يعد يظهر ديوب في جرماتي؟ يوقع على الجدول الخاص به، يستميت في استطلاع حرف أو رقم من الأوراق الأخرى. يعدّ البرزغل في المساء حصيلة نهاره. لم يعد في الأمر سر يا زاهي. أين تذهب الفروق بين المبالغ المسجلة والمبالغ المسلمة؟ ماذا تستطيع أن تفعل في مواجهة ذلك كله؟ رافع يقفل من بيت البرزغل، تامر يجرجر قدميه خلفه. ماذا حصلتما أيهاالفحلان؟ هشّ لنا البرزغل ملاقياً يا زاهي. لم يكن في البيت غير عامل من الحورانة، ناهض طرد العامل لسبب ما، والعامل يبكي بين يدي البرزغل. قال البرزغل: لماذا لم تتكلموا قبل اليوم؟ أين زاهي أيضاً؟ أين أبوك يارافع؟ الله وحده يعلم ما إذا كانت الورش بحاجة إلى عمال. ها هو ناهض كما ترون قد طرد هذا الشقي. أنت أبوها يا مختار. تستطيع أن تدبر الشغل وغير الشغل. أين صارت كشوفات بيوتنا؟ أقسم البرزغل أنه لا يعلم عنها شيئاً. لابد من الانتظار حتى يعود ناهض. تكومنا أمام البيت مثل كلبين جربين. عاد ناهض من التلة. بادره البرزغل قبل السلام بأمرنا. عدّنا واحداً واحداً: بشير القصاب وابنه، زاهي، تامر، نايف، وصمت ناهض طويلاً. خرج يغتسل دون أن يرد. هل يقوم واحد منا ويبطحه؟ إلى جهنم

على الكشوفات والشغل كله. عاد من الاغتسال، صمت فترة أخرى، ثم تنحنح مثل الشيطان الرحيم. قال: ورش البناء مكتملة، بل في بعضها زيادة يا مختار. هذه غلطتك. قال المختار متعطفاً: أي عمل، أية أجرة، هم على كل حال من جرماتي. همهم ناهض بحقد: لماذا لم يشغلهم جبر رزوق؟ قلنا: الحمد لله ليس زاهي بيننا، لكان ارتكب جريمة. أدار البرزغل بؤبؤيه في وجهينا، قال منغماً صوته: المسامح كريم. أنا رأيت منهم ما هو أدهى؟ قلنا يا عفو الله! قال ناهض: حين تصل ورشة تزفيت الطريق إلى مطل جرماتي، أرسلهم إليها، ما عدا نايف. أوشك تامر أن يفتح فمه، لكن رافع سبقه: والكشوفات؟ سأل ناهض دون أن ينظر نحونا: هل وقعوا على الجداول يا مختار؟ نفى المختار، فغضب ناهض ونهرنا: كيف تسألوني عنها وأنتم لم توقعوا بعد؟ اغربوا عني. ماذا تستطيع أن تفعل يا زاهي؟ اغضب ما حلا لك. اشتم أجداد البرزغل، أجداد ناهض، عنّفْ رافع، عنّفْ تامر، إلى متى نتركهم يلعبون بنا؟ رافع لا يتزحزح: ماذا نستطيع أن نفعل غير ذلك حالياً؟ تامر ينضح بالندم والوعيد. لن تذهب يا زاهي إذا لم يذهب نايف. نايف أيضاً يعارضك. أنت بحاجة للعمل الآن، الآخرون أيضاً محتاجون. اتركوا نايف جانباً ريثما نرى ماذا يخفي ناهض؟ بشير يعاضد نايف: شغل شهر في الورشة يغلّ أكثر من نصف موسم الكروم، أكثر من نصف ما تغلّ تجارتك يا زاهي في سنة. نادِ جبر وتحسّرْ. ليس ناهض غير كلب مطيع. تلك وصايا السكماني، وصايا الأستاذ قبلان. رافع يهز أركانك: لا تكن عنيداً كالثور، لسوف تغرز الصخرة قرنك في رأسك. هل تشهر كفك عليه؟ لا تكن ضعيفاً إلى حد الهوان يا رافع. ونايف يصيح بكما: هل تتشاتمان؟

(11)

انتفخت راحتا زاهي من الشغل في ورشة التزفيت. ضاق صدر رافع على الموقد البدائي تحت برميل الزفت. انتشرت حول الورشة عدة

مجموعات من الأطفال والصبايا: مجموعة تنقل الماء من الجرن إلى البراميل الفارغة المصفوفة على جانبي الطريق، مجموعة تنقل القفف الطافحة بالأحجار المكسرة، مجموعة تنقل الماء إلى أمام المدحلة وجانبيها.

على المدخل يجثم السائق ورجل ليس من جرماتي. حول براميل الزفت يتكوم ثلاثة من عمال مديرية المواصلات. الطريق تسودّ وتنعم. ظهرت على مطل جرماتي، فوق جرن النبوعة، مثل لسان أسود يتطاول شيئاً فشيئاً. لم يعد من شاغل يشغل جرماتي غير اختفاء الصخور والحفر من الطريق. صار التراكتور يقطع الطريق من الشام إلى جرماتي بربع ما كان يقطعه بها سابقاً. خمّن بعض الرجال أن سيارات الجيب سوف تعمل على طريق جرماتي. تراكتور السكماني لن يظل يتحكم بالركاب إلى الأبد. حلّت ساعة الغداء. قفز الشغيلة الجرماتيون إلى بيوتهم. المعلم، أي: سائق المدحلة، لا يرحم. ناهض أيضاً لايرحم. المتأخر يدفع نصف يومية إلى السائق، أو يطرد. أبو رافع ينادي تامر صبح قبيل الانصراف:

- هل نعرّج على البرزغل اليوم؟

قال تامر:

- أبوك يا رافع يرى الكشوفات في منامه.

تقدم بشير وتامر، وتبعهما الآخرون. تمتم زاهي بصوت غير مسموع:

- كان ينبغي أن أن نخبر نايف بذلك.

التقطت أذناً تامر الخلديتان تمتمة زاهي، فالتفت نحوه وقال:

- أتعرف يا زاهي؟ إذا لم يشتغل نايف في جرماتي، فلن يستطيع الصبر طويلاً. سوف يتركنا.

غذّ بشير خطاه وقال:

- انتظروا حتى نرى ما يكون.

بعد قليل ظهر البرزغل في ظل التوتة العالية المنتصبة أمام بيته. رأسه

مكشوفة، شارباه متهدلان، هزيل كدجاجة توشك أن تنفق. همس تامر:

– أتراهنون على أنه سيموت هذا الشتاء؟

قال بشير متأوهاً:

– مثل القط يا حسرة. له سبعة أرواح!

أفلتت ضحكة عالية من زاهي. انتفض البرزغل مباغتاً. استدار بشير لائماً. سلموا على المختار مجتمعين. نهض البرزغل وتمتم متأففاً:

– لن يستريح المختار من مشاكلكم.

تلعثم بشير:

– قلنا نسلم عليك و..

قاطعه خروج ناهض من الغرفة. خرجت البرزغلة إثره تحمل طبقاً. تُبودلتْ نظرات سريعة بين الرجال. عاد بشير يتلعثم:

– السلام عليكم.

رد ناهض قرفاً:

– عليكم السلام. ماذا تفعلون هنا؟ إذا تأخرتم عن الشغل فلا تلوموا إلا جلودكم.

قال تامر:

– لن نتأخر إن شاء الله.

قال بشير:

– جئنا نسأل عن الكشوفات إذا سمحتم.

قال ناهض غير آبه:

– كشوفات ماذا؟

قال البرزغل مدارياً:

– آه صحيح ذكرتموني. لم يبق في جرماتي غير كشوفاتكم. أمن أجل هذا جئتم الآن؟

قال ناهض ساخراً:

- يبدو أن جيوبهم منفوخة. ليسوا بحاجة إلى الدولة حتى تعمر لهم القصور.

قال تامر مقلداً سخرية ناهض:

- خيركم غامر.

سأل بشير وقد فارقه تعثره:

- ماذا قلت يا مختار؟

قال البرزغل متمسكناً:

- القول للأستاذ.

ظهرت البرزغلة من جديد تنفض يديها، لمعت عيون زاهي ورافع وتامر. أمر ناهض:

- وقعهم على الجدول والحقْ بي.

وولج إلى الغرفة.

غاب المختار هنيهة، ثم عاد يحمل عدداً من الأوراق المخططة. قرأ اسم بشير القصاب، وناوله جدولاً. هرع بشير يوقع. نادى البرزغل على زاهي بصوت عال. تناول زاهي جدوله وأقبل يتفحصه.

قلّب البرزغل في الأوراق الأخرى باحثاً عن ورقة تامر صبح. هرع إلى الغرفة لاعناً التعب. مد بشير يده بالقلم إلى زاهي. قال زاهي دون أن يرفع رأسه عن جدوله:

- لن أوقع.

سأل بشير مستنكراً:

- ولماذا يا سيدي لن توقع؟

قال زاهي محتداً:

- ما هو المبلغ ؟ انظر. لم يسجلوا أي رقم هنا؟

قال رافع:

- خلّهم يعمروا لك إذن.

خاطب زاهي أبا رافع:

- أرني جدولك.

مرّ على الجدول سريعاً ثم صاح:

- كيف وقعت وليس في الجدول غير اسمك؟ هل تعرف كم سيسلمونك؟

قال بشير:

- حصتي . أعوذ بالله. لست أفضل من كل الذين وقعوا. دعنا يا زاهي يا ابن أخي نخرج بسلام.

قدم المختار مهرولاً. سلّم تامر جدوله هامساً:

- أسرعوا يا جماعة. الأستاذ متعب ومنرفز أيضاً. خذ يا بشير، وقعت؟ هات جدولك. خذ: واحدة اثنين ثلاثة أربعة خمسة، خمس مائة ليرة، عدّ جيداً.

قال زاهي:

- خمسماية ليرة من أجل ماذا؟ ماذا ستفعل بها يا عمي بشير؟

ضحك البرزغل وقال:

- تعمر لك فيلا يا عيوني. أين جدولك أنت؟

قال زاهي:

- لم أوقع عليه بعد.

رفع المختار حاجبيه وقال زاجراً:

- فرصة الغداء تكاد تنتهي. هيا.

قال زاهي:

- المبلغ؟

قال المختار بأناة:

- وقعْ أولاً، ونصيبك يصلك بالتمام والكمال.

أصرّ زاهي:

- المبلغ أولاً. أريد أن أراه مسجلاً هنا.
صاح المختار:
- هل تكون راغباً في أن تعمل مهندساً؟
لعلع صوت ناهض من الداخل:
- ماذا يا مختار؟
صاح المختار:
- زاهي افندي يريدنا أن نميزه عن جرماتي كلها.
قال زاهي:
- لا تميزني ولا أميزك. هذا حقي وأنا أطالب به.
قال المختار:
- من ينكر عليك حقاً يا صاحب الحقوق؟ وقعْ حتى تأخذ مالك وتنصرف بسلامة الرحمن.
قال زاهي:
- أعرف المبلغ ثم أوقع عليه. أنا لا أوقع على بياض.
صاح البرزغل:
- هل تخونني يا زاهي؟
- أنا لا أخون أحداً.
خرج ناهض غاضباً:
- ما الأمر يا مختار؟
قال بشير:
- دعنا نخلص بسلام يا زاهي.
اتجه زاهي نحو بشير:
- ما أدراك أنهم سجلوا على اسمك ألفاً أو ألفين، ورموا لك بهذه الكسرة؟ هل نسيت كل شيء دفعة واحدة؟
اندفع ناهض نحو زاهي ملوحاً بكفه:

– ماذا تقول يا طويل اللسان؟ سوف أقص لسانك على كل كلمة نطقتها.

تصدى زاهي لذراع ناهض، ودفعه إلى الخلف بشدة. كاد ناهض أن يرتمي لولا أن احتضنه بشير. صرخ زاهي:

– هل تحسبنا عبيدك؟ اشتريتنا بأموال أمك؟ مرة ليس عندي شغل، ومرة وقّعوا، ومرة سأقص، من تظن نفسك؟

خرجت البرزغلة تولول. علا لغط الرجال. شبك البرزغل وبشير ذراعيهما بذراعي ناهض، وأدخلاه إلى الغرفة. دخلت البرزغلة خلفهم. ظهر البرزغل في فرجة الباب، وصاح بتامر:

– أين ورقتك أنت؟ هل وقعت أم تريد أن تعمل مثل صاحبك؟

طوى تامر الورقة بعناية، وخبأها في عبّه، وقال:

– سوف أحتفظ بها حتى أعرف حصتي.

ثار المختار، واندفع إلى تامر. أمسك تامر بذراعيه، طواهما خلفاً، وساقه أمامه إلى الغرفة قائلاً:

– تفضل عند الأستاذ، فهذا أشرف لك. السلام عليكم.

أطلت رؤوس عديدة في الجوار، وملأ صوت زاهي جرماتي:

– كل أعمالك يا ناهض الخلوف معروفة. كل أعمالك يا مختار. تتشاطرون علينا؟ سمسرة ابن الشيخ معروفة، تزوير الكشوفات، حتى البرزغلة، سنتحاسب يا ناهض بيك. سنتحاسب يا مختار.

وفي الداخل كان البرزغل يلطم وينوح: لا المساء ينطوي على خير، ولا الصباح. لماذا لم تميز يا برزغل بين من يسكت ومن لا؟ المواجهة مع هؤلاء قد تجر البلاء. ألسنة طويلة، حركات الأبالسة، أحقادهم قديمة، جرماتي كلها ليست رائقة. كافرة بالنعمة التي حلت معك يا ناهض. اغفرْ لها ياناهض، أية أسرة لم تستفد من ورشة؟ من كشْف؟ رجالها؟ نساؤها؟ أطفالها؟ مئة ليرة، مئتين، عشر.. كانت الليرة تنعش أعتى القلوب. تبدلت يا جرماتي بعد الاحتلال. صاروا لا يشبعون. لا يأخذون

ما كتب الله لهم ويضحكون في عبهم. عيونهم اليوم بلا حواجب. اتركهم لي يا ناهض. تدخلي يا برزغلة. لم تنفعي عمرك بحبة شعير، تعالي الآن إلى جبين صاحبنا. فكي لي عقدته. قولي له: لا حاجة إلى الأيمان التي تنهال: سوف يدخلهم السجن جميعاً، سوف يقص اللسان الذي يطلع خارج حلق صاحبه.. هذه هي الحقيبة يا ناهض . ابن الشيخ محب تأخر حقاً. هيا يا برزغل إلى الورش. هيا يا ناهض. هيا يا...

(12)

بكّر زاهي وتامر نحو ورشة التزفيت. ماذا يساوي قرار ناهض بالطرد؟ وقفا قرب برميل الزفت. النار تحت البرميل تتأجج. الدخان يتعالى في سماء جرماتي. رائحة الكاوتشوك المحروق لم تعد تجعل زاهي يرغب في التقيؤ. عمال مديرية المواصلات لا يجرؤون على محادثة زاهي وتامر. ينسحب تامر بعد لأي مجدفاً حزيناً. هل تستطيع يا زاهي أن تعمل في الورشة إذا لم يسمح لك ناهض؟ ما يجدي أن تعطل الورشة كلها؟ سوف تبارح موقعك عاجلاً أم آجلاً. لو شاء ناهض لجعلك تعمل في نوافذ وأبواب مشروعاته ليل نهار. أراد أن يعلمك صنعة جديدة. ماذا تنفع في تزفيت الطريق؟ أراد أن يذلّك ويذل الآخرين معك. أين غاضت حماستك أمس؟ سوف نعمل في الورشة شاء أم أبى. سوف نلاقيه في أي مكان. لا مفر لك يا ناهض منا. لا مفر لك يا زاهي من ناهض. لا مفر لك يا جرماتي من..

صوت بوق عال. بولمان جميل كبير يظهر في مطل جرماتي. تعج نوافذ البولمان بالرؤوس والأيدي. يتوقف البولمان قرب جرن النبوعة. يفتح زاهي عينيه ما وسع. تنزل من البولمان أعداد كبيرة من الفتيات وبضعة رجال. لا يستطيع البولمان تجاوز المدحلة التي تروح وتجيء وسط الطريق، بين الجرن والمقبرة. يميز زاهي من موقعه يافطة صغيرة في الزاوية اليسرى لواجهة البولمان. تعجزه الكلمات الصغيرة، يتقدم نحوها، تظهر لوحة

البولمان الأردنية من فرجة صغيرة بين فتاتين واقفتين أمامه. أحد مرافقي الرحلة يقترب من زاهي ويسلم. تتحلق عدة فتيات حوله. يهش زاهي لهن. تتألق عيناه. تقول فتاة تضع نظارات سميكة:

– هذه جرماتي؟ أين صارت الحدود؟ يبدو أننا لن نستطيع التقدم أبعد.

يقبل رجل آخر من مرافقي الرحلة. يتحدث عن قدوم البولمان أمس من عمّان وعن زيارتهم للقنيطرة. تقول فتاة سمينة تزاحم كتف زاهي بثدييها اللذين أشبها بالونين كبيرين:

– جرماتي دخلت أمس في مخطط الرحلة. قالوا لنا في الشام: وحدها تعطي صورة دقيقة عن تعمير المناطق المحررة.

تسابق الرجال والنساء في شرح ما حصلوه عن الجبهة والانسحاب. عجز زاهي عن زج لسانه بينهم. نزلت عدة فتيات إلى جرن البنوعة. حاولن أن يتغلبن على صمت فتيات جرماتي في الجرن. أوشكت الفتاة السمينة أن تنزلق فوق بلاطة الجرن الصخرية. أسندتها شقيقة رافع بصلابة. تأوهت الفتاة الأردنية معجبة بصلابة الصبية الصغيرة النحيفة. خاطب زاهي شقيقة رافع من بعيد:

– أرسلي الشباب فوراً.

وضحك، ثم تقدم الرحلة يشرح. غالب لغطهم بجهد ورفع صوته. أطل بيت تامر صبح. نادى ساميلا التي كانت تقف على السطح. ظهر بعد ثوان تامر خلفها. تحدث زاهي عن كرم تامر وبيته. توقف تامر عن إصلاح البيت منذ قدم جبر رزوق، مؤملاً بالحكومة. عبرت الرحلة بالمقبرة، تجولت في الساحة، المسجد، المدرسة. تحدثت الفتيات الأردنيات مع الرجال القلائل الذين يعملون في الورش. ظهر في مدخل دكان بيزو عدد من الرجال يتلصصون، في مقدمتهم بيزو نفسه، وديوب. أومأ زاهي بحاجبيه إلى الفتاة التي تضع نظارات سميكة:

– ذاك كان مختارنا أيام الاحتلال، والآخر عمّي، صاحب الدكان.

كان صاحب الملازم اسحاق وعساكره أيام الاحتلال.

سألت الفتاة معابثة:

- هل هما من معالم جرماتي السياحية حتى تحدثنا عنهما؟

وضحكت برقة. التفت عنها زاهي متابعاً:

- بالطبع.

قالت الفتاة:

- لكن ذلك لا يثير فضولنا. لدينا من أشكالهما ما يكفي نصف الكرة الأرضية!

فاجأه سؤال فتاة أخرى من يساره:

- حدثتنا عن كل شيء زمن الاحتلال ونسيت نفسك!

تسمر زاهي. أطبق شفتيه، أدام النظر في عينيها: بؤبؤان راقصان أخضران، بياض فسيح. هل أقول لك إنني تركت التجارة حين جاء الاسرائيليون؟ من في جرماتي يحتاج إلى مسمار في تلك الأيام؟ أبو سمية يريد من زاهي أن يرصد دقائق الملازم اسحاق، الرقيب ايليا، وزاهي يهّرب أخبار جرماتي إلى كل مكان. ماذا تريدين أن تعرفي عني؟ بيتي؟ أمي؟ عمي؟ رفاقي؟ تابعي سيرك في الشارع الاسرائيلي، انثالي أيتها الذكريات، استمعي إلى هذه العجوز:

- يالطف الله! ما الذي سيأتي عليك يا جرماتي أيضاً؟ خمسين امرأة! لماذا؟

تجمعت بعض العجائز والنساء اللواتي لم يكن لهنّ عمل في أية ورشة. ظهر أبو رافع قرب بيته. بادره زاهي سائلاً عن الشباب. قال أبو رافع متصنعاً الجد:

- يبدو أنك وجدت عملاً أفضل من تزفيت الطريق، ومن النجارة!

قال زاهي مناكداً:

- نعم يا عمي. سوف تأتي رحلات كثيرة بعون الله لتتفرج علينا. ألا تأتي معي؟

ضحك بشير وقال:

– وإذا رأتني أم رافع؟ الشيخ محب يوشك أن يرفع الآذان. أنا ذاهب إلى الصلاة، من يحب أن يرافقني؟

علا ضحك عام، وتابع زاهي على رأس الرحلة. وازى بيت أبي سمية. لا يزال البيت ينتظر السقف. خرجت أم سمية من خيمتها مستطلعة. وأخيراً سلمت أمرها للشباب. لئن لم ينته البيت قبل الشتاء، فستترك الخيمة إلى بيت بشير. لحقت سمية بأمها بعد ثوان. سألت فتاة أردنية زاهي مومئة إلى الخيمة:

– هل في جرماتي فلسطينيون أيضاً؟

حدثها عن فضل، عن عمر شقيق الأستاذ قبلان. ذكر المعسكرات وبيروت وصيدا. حدثها عن الأستاذ قبلان. اقتربت سمية منه. شغلته طلعتها عن الفتيات الأردنيات. نقل عينيه بينها وبينهن. بحث عن طلعة أمها. مد كفه لها قائلاً:

– تعالي معنا.

تطلع بغتةً إلى نهاية الشارع الاسرائيلي. لمح ناهض وابن الشيخ محب مقبلين. توقف يدقق النظر. جمحت به الرغبة في الصدام. سبقته فتيات كثيرات. ألم أذهب في الصباح إلى الورشة من أجل الصدام؟ أين أنت يا تامر؟ لماذا لم تذهب إلى بيت البرزغل؟ لماذا لم تذهب إلى التلة؟ هل كنا نخشاه في سرنا. تعال يا ناهض تعال. افتح عينيك جيداً. سل ابن الشيخ عما يراه. نساء يا ناهض نساء. أنوار تشع ملء السماء والأرض. غريبات أنّى لجرماتي أن تنجبهن. اسمعي أيتها الرحلة:

– هذا هو المهندس الذي قلت إن الدولة أرسلته ليعمر جرماتي.

خفق فؤاد ناهض. تأخر عن ابن الشيخ محب. توقف يسأل:

– هل يضمر الشر يا ابن الشيخ؟

تعوذ ابن الشيخ:

- ماذا تريدني أن أفعل؟

قال ناهض:

- ماذا يمكنك أن تفعل؟ صرت لا تنفعني في شيء. أظن أنني سأطردك قريباً.

اندفع ابن الشيخ محب متجاوزاً ناهض، صائحاً:

- هل أملص لك رقبته؟

لحق ناهض به، شدّه إلى الخلف بقوة. ارتمى ابن الشيخ محب على قفاه. همس ناهض بصوت خفيض:

- وفّرْ رجولتك حتى تقع على دابة.

وتقدم مبدلاً ملامح وجهه، متلبساً البسمة. تعجب زاهي مما حصل في وجه ناهض، وكذب أذنيه:

- من هؤلاء يا زاهي؟ أين ذهبت أنت والشباب؟ كنت أريد أن أراكم. بكرت في الغداء من أجل ذلك. ينبغي أن نسوّي القضية بطريقة أفضل. المهم، لم تقل لي من أين الإخوة والأخوات؟

حلّ البله محلّ الغضب. مازج البله احتقار ورغبة في الانتظار. بلع ناهض ريقه. انحرف عن زاهي. واجهته سمية وأمها وعدد من الأردنيات. قال ناهض:

- مرحباً يا خالتي. أنت وسمية تبدوان غريبتين بين الآنسات. يا ستار. صارت الجرماتية غريبة في جرماتي.

من يشاركك الضحك يا ناهض؟ حرّكْ يديك في سائر الجهات. اسأل علّ أحداً يجيب:

- من أين الضيوف؟

قال زاهي:

- نظرك مشوش. سمية وأمها لا تبدوان غريبتين في جرماتي. علائم جرماتي محفورة في الجبين. هل معك مرآة؟ انظر من هو الغريب حقاً. من هو الغريب مثل هؤلاء السواح، بل أكثر.

كيف تخفي ارتباكك يا ناهض؟ تظاهرْ بالمفاجأة. اقتربْ من أم سمية. اهتمّ بها:

– يا خالتي أنا في الحقيقة مقصر جداً. ماذا تستطيع يد واحدة أن تفعل؟ ارحموا ناهض بدلاً من أن تلوموه.

انتظرْ يا زاهي من جديد. لسانه ذرب. عيناه تدوران في البيت الذي لم يكتمل. الكشف الذي أجراه جبر على هذا البيت. قريباً ننفذه. لن أقدم عليه بعد المشاريع الحالية أي بيت. هل تريدين يا خالتي أن تأخذي قيمة الكشف مثل الآخرين؟ لماذا تعض على شفتيك يا ناهض؟ أنت نادم على ما فرطت به؟ إلى أين تفر من هذه العيون جميعاً؟

– لا داعي لذلك يا خالة. ما داموا جميعاً أخذوا أموالهم، فسأتفرغ لهذا البيت. والآن، حدثونا يا جماعة عن رحلتكم. كيف رأيت يا آنسة جرماتي؟

الآنسة تقف بين سمية وأمها . أيهن تختار يا ناهض؟ حضرت البرزغلة. قارن بين الكهلتين. أم سمية حلوة المحيا. لا يزال شعرها غزيراً، طويلاً، بياضه نادر، صورة من هذه، وصورة من تلك؟ بشرة ناعمة، تجاعيد خفيفة لا تكاد تبين، سمنة شهية في كل ناحية من الجسد، الكتف، الخاصرة، الثديان، الرقبة، شحمة الأذن، الأوراك، الأفخاذ، اللعاب، الثياب، من يعلم ماذا تخفي هذه الثياب؟ هل يكون الأمر أصعب هنا؟ لم أعرف أسهل من البرزغلة. وضعت يدي على كتفيها فصارت تبادلني النظرات الحانية. خجل الأربعينية جميل، وفي الخلوة التالية قضي الأمر. اذهب يا مختار إلى ورشة المدحلة بعد الغداء فوراً. سوف أستريح قليلاً. التعب هدني. صاح البرزغل بها. اتركوا ناهض يرتاح. انصرف المختار فتعالي يا مختارة. جاءت عجلى لهفى. أغلقي الباب. من أين واتتك هذه الجرأة كلها يا ناهض؟ لم يخنك الحظ مرة واحدة مع امرأة. لماذا الباب؟ اقتربْ ياناهض اقترب. مسّدْ الكتفين، ارتجفي يا برزغلة. اغلق الباب يا ناهض. ألا تعرفين لماذا الباب؟ هل صدقت أن ناهض يريد أن يرتاح؟ أعوذ بالله يا ناهض. اتركينا من الله

والشيطان وتعالي. لا تفضحني يا ناهض. لماذا أنت ثقيلة هكذا يا برزغلة؟ سأغير لك هذا الاسم حتى لو لم يسمح المختار. أليس هو الذي سماك به؟ أم سمية أخف، أرشق، لماذا تضطربين يا أم سمية؟ إلى أين تبتعدين أيتها الأردنية؟ ماذا في الخيمة يا أم سمية؟ إلى أين تفرين أنت أيضاً يا سمية؟ ونادى زاهي:

– سمية: ألن تذهبي معنا؟

العنْ غباءك يا ناهض. لا تشعل غيرته. كيف فكرت بالأم وتركت البنت؟ وردة وحق الله. حرام أن تعيش في جرماتي. من يراهن على أن يداً لم تمتد إليها؟ لن تكون يدك الأولى يا زاهي؟ سأعلمها مثلما علمت البرزغلة. سأعلمها وأعلم أمها. سوف تتعلمان أفضل وأسرع. لكن زاهي يقترب منها كثيراً، يسرّ لها. أمامنا جميعاً توشوش يا زاهي؟ هل نتواجه ثانية؟ هل تطلع لي بالنصيب أينما تحركت في جرماتي؟ سوف أضاعف المبلغ فاسكت. سوف أضاعف للآخرين إكراماً لك. سوف أعمر بيت سمية. سوف أنسى كل ما كان. سوف يشتغل نايف. ماذا تريدون من ناهض الخلوف أيضاً؟ فقط ابتعدوا لي عن سمية. ابتعدوا عن أمها. ابتعدوا لي عن جرماتي. خذوا كل ما تريدون وابتعدوا. لماذا أفردتموني وحدي؟ التلة بعيدة يا زاهي، بعيدة أيتها الرحلة، أيتها الخيمة، يا ابن الشيخ محب، لماذا يبتعدون وأبقى هنا وحدي؟

(13)

التأم الشمل في بيت بشير القصاب مبكراً. سبق تامر وساميلا الآخرين. قدم نايف وزاهي من لدن العجوز أم نايف التي لزمت الفراش، تكاد أن تقضي. ابتدرهم زاهي ولما يستقر بعد على الكرسي الصغير الخفيض:

– احزروا من جاءنا قبل قليل في بيت أم نايف يشكو ويبكي؟

قال رافع متجاهلاً وهو يشمّر عن ساعديه:

– انصرفت العرجا لتوّها. دعت دعاءً يكفي جرماتي مئة سنة. لا تنسوا أنها كانت أول من تحدى ناهض والبرزغل.

قال زاهي:

– لو كان سلوم هنا لاختلف الأمر. ولكن ألا يريد أحد أن يحزر؟

تقلقل تامر في جلسته وقال:

– ومن يكون؟ رئيس الجمهورية؟

قال زاهي ضاحكاً:

– قل يا نايف. يا سيدي رئيس الجمهورية ونص. ولكن باعتبار ما مضى. إنه ديوب.

سألت ساميلا متقززة:

– ولماذا يشكو؟

قال نايف:

– أكل البرزغل وناهض عليه ثلاثة أرباع قيمة الكشف، وهو لا يجرؤ على كلمة. يخشى أن يستغلوا المخترة السابقة ضده.

قال بشير:

– ما الذي خسره هذا الكلب حتى يأخذ فرنكاً واحداً؟

قال زاهي:

– على كل حال هو يدعو لكم أكثر من العرجا. قال: أنتم رجال جرماتي، ولا تتركون أحداً يعتدي عليها. حين فعل المحتلون تصديتم لهم، حين فعل السكامنة، والآن، حين جاء ناهض والبرزغل.

قاطع رافع :

– جاء اعترافه متأخراً جداً. أين كانت الدرر يوم كان مختاراً؟

قال زاهي:

– قال له نايف ذلك، وزدت عليه. المهم، ما فعلناه بناهض والبرزغل

أشعل نار جرماتي. ماذا تقولون؟

دخلت بربهان حاملة ابنتها، ورسالة واصلة للتو من غالي. دخلت في أثرها شقيقتها الأرملة، وقد ازدادت سمنة وترهلاً. لاقاها بشير ممازحاً:

- يبدو أن المرحوم كان سبب نحافتك يا روحي.

أشارت إلى رافع وزاهي وقالت:

- ماذا تركت لهم؟ ارع شيبتك.

أردف بشير:

- لم أكن أعلم أنهم يبحثون عن الأرامل والمطلقات.

دخلت أم سمية وسمية. عجّ البيت بمن فيه. هشّ زاهي لسمية. ائتلقت عيناها وجازته بابتسامة عريضة. ضبطت ساميلا العيون الأربعة فغمزت وضحكت. قالت أم سمية:

- ناهض جادّ هذه المرة. عاد إليّ مع البرزغل. وطلب أن أوقع على بعض الأوراق. دار في البيت وكرر ما سمعته يا زاهي.

تجهمّ زاهي وسأل:

- ماذا قلت له؟

قالت أم سمية وقد توسطت في جلستها بربهان وشقيقتها:

- ماذا قلت؟ طلبت أن يؤجل الموضوع، فأسرع البرزغل: تريدين أن تشاوريهم؟ سأل ناهض: من هم؟ قال البرزغل أصحاب البلاء. من هم؟ الذين عمروا هذه الأحجار. عندئذ سكت ناهض لحظة، ثم خاطب المختار: وماذا يمنع؟ دعها تشاور من تريد. ثم اتجه نحوي بكل وقار: يا أم سمية، إذا كنت تنوين مشاورتهم حقاً، فأرجو أن تلحّي عليهم حتى ننتهي من الكشوفات. تفضلي معهم إلى بيت المختار، ولن نختلف بإذن الله على شيء.

انتفض زاهي:

- الكلب يشترينا؟

قالت بربهان:

- اسكت يا زاهي. هنيئاً لكم. خذوا كل ما تستطيعون. لم تقع الواقعة إلا علينا يا حسرتي.

قال نايف:

- هل تذكر يا زاهي تلميحات ديوب؟ سوف يحاولون إسكاتكم بأي ثمن. إنه داهية.

تراخت ملامح رافع، وقال باسماً:

- مكسب!

قالت أم سمية:

- حسناً فعلت إذن، لم أعطه جواباً. كنت على وشك أن أرفض. هل تنوون القبول؟

أسرع رافع:

- أليس هذا ماكنّا نحتج عليه؟

طفق تامر يحك قذاله قائلاً:

- بلى، ولكن لا أدري لماذا يخيل لي أن اللعبة ليست نظيفة يا رافع؟

قالت سمية، وهي تحدق في عيني زاهي:

- ماذا تحكي عنكم جرماتي؟

قال رافع ساخراً:

- نحن آخر من يأخذ استحقاقه، من يمكن أن ينالنا بحرف؟

قالت سمية:

- لكنكم تأخذون أكثر من الجميع.

قال رافع محتداً:

- حيرتموني والله؟ هل أفهم أنكم ترفضون؟ لماذا تشاجرنا معهم إذن؟

شبك زاهي كفيه، وسعى كي يبدو هادئاً، وقال:

- اليوم نحن في وضع جديد يا رافع.

أمعن رافع في الحدة:

- كيف؟

اتجه زاهي نحوه، وتأنى في الشرح:

- عيون جرماتي كلها اليوم مفتوحة علينا. لم نعد أحراراً في بلع ما يرميه ناهض إلينا. ينبغي أن نستغل عرضه كي نطالب بزيادة الكشوف للجميع.

قال نايف:

- لا تتفاءل يا زاهي كثيراً.

أسرع رافع :

- ماذا يبقى إذن له؟ للمختار؟ لمن وراءهما؟

هز تامر رأسه، وقال:

- لو تصديتم مبكرين لاختلف الأمر. رحمة الله عليك يا جبر رزوق.

قال رافع:

- هم اخطبوط: من الشام إلى هنا، من يستطيع مواجهتهم؟ سوف نخسر في أفضل الأحوال المبلغ الضئيل الذي يعرضونه اليوم.

أنَّ زاهي من اصطناع الهدوء، وقال:

- هل كنتم تحلمون بهذه النعمة يوم انسحب الاسرائيليون؟ هل كنتم تنتظرونها يوم بدأنا نعمر بيت أبي سمية؟ بيت بربهان؟ بيتك يا تامر؟ ما لكم سال لعابكم على العظمة التي يلوح بها ناهض؟

قال نايف:

- أشهد أنني لم أعهد أفهم عليكم. ألن تصلوا إلى حل؟ ما هكذا كنت ولا كنتم قبل السجن.

قال زاهي:

– ناهض يسحب البساط من تحت أقدامنا في جرماتي. سوف يجبرنا على السكوت في المستقبل، مهما فعل هو سواه. أنا لا أقبل الرشاوي.

قالت أم سمية:

– رشوة حقاً، ولكن..

قاطعها تامر مفكراً:

– كم تقدرون ما سيتكرم به علينا جميعاً؟

قال زاهي:

– افرضْ خمسة آلاف ليرة. هل تحلمون بأكثر؟

قال بشير:

– يا ريت.

ارتسمت على محيا تامر فرحة الدهشة والاكتشاف:

– لماذا لا نأخذ كل ما يعرضه علينا، ونفصل الزيادات التي يميزنا بها عن بقية الناس، فنصلح بها جرن النبوعة أو نجرّ الماء إلى هنا؟ منذ متى نحلم بهذا؟

وقف نايف هاتفاً:

– صدقت يا تامر صبح. جرماتي تنتظر الجرن منذ عمرنا المدرسة، منذ شققنا الطريق التي يزفتونها اليوم.

ناسَ صوت زاهي خاضعاً:

– حل وسط.

تنحنح تامر، وتقلقل في جلسته ملامساً ساميلا، ثم قال:

– بعدما نأخذ المبلغ، نتابع سعينا من أجل تحصيل الفروق لجرماتي كلها. ليأخذْ الناس زياداتهم ويرموها في البحر.

قال زاهي محتاراً:

- ماذا تفعل ألف أو ثلاثة بالجرن؟
قال نايف:
- اجمعوا من جرماتي ما قد يلزم.
قال زاهي مستنكراً:
- أنتم تحلمون.
قال رافع:
- لن نقدر على تحصيل زيادة لأحد، إذا ملصنا بقرشين لنا فخير وبركة.
• قال نايف:
- الجيوب الآن فيها القليل مما ينفع.
أصر زاهي:
- كل ذلك لن يفي بمشروعك يا تامر.
قال تامر متشبثاً:
- نجمع من كل مكان يا زاهي. ندور على أولاد جرماتي في الشام، في لبنان، لن يتأخر منهم أحد.
هتف نايف واقفاً من جديد:
- عظيم يا تامر!
قالت أم سمية:
- عظيم يا تامر!
داعب بشير شاربيه وقال:
- إي والله، عال العال.
قال زاهي:
- تحمست يا نايف أكثر من تامر. أهي الذكرى فقط أم أنك راغب في السفر؟
قال تامر:

– وجدنا لك شغلاً يا نايف، دون أن نحمل منّة ناهض. دائماً كنت أقول لهم: نايف لن يطيق الصبر على هذه الحال، احزم حزامك من الغد.

قال نايف:

– بهذه السرعة؟ لم أفكر في ذلك من قبل، صدقوني. هل أذهب وحدي؟

قال بشير:

– أنا أرافقك.

قال تامر:

– أنا إذا أردتم.

قال بشير:

– أنتم هنا اجمعوا ما تستطيعون. العبوا على ذقن ناهض والبرزغل ريثما نرجع. حضروا ما يلزم لنبدأ الشغل بسرعة.

قال تامر:

– ندور لو احتاج الأمر على جيراننا: الحورانة، الدلبة، الـ...

قاطعته ساميلا ضاحكة:

– تامر مستعد أن يضع ألف احتياط حتى لا يفلت الجرن.

فاض تامر حناناً:

– أريد أن أسقيك ماء نظيفاً قبل أن ينهدّ هذا الكتف تحت المقرون. غداً تشيخين.

وأرخى ذراعه على كتفها. قالت سمية:

– هل نرتاح حقاً من نقل المياه كالدواب؟

حرك زاهي حاجبيه وقال:

– ولكن لنقل المياه فوائد أخرى، لا تسرعوا فتنكروها.

قالت أم سمية:

- والبيت يا جماعة؟ نسيتموه؟ ماذا أقول لناهض؟
اندفع تامر ونايف ورافع وبشير:
- اقبلي..اقبلي.
التقت الأنظار فوق زاهي، فقال بعد لأي:
- اشترطي عليه أن يجعله قصراً.
وعلا الضحك واللغط.

الفصل الثالث

(1)

طلعة سمية الكئيبة المقهورة تضاعف خيبتك. بماذا قفلتَ من الشام؟ يومين قتلهما وحدك هناك، قتلاك. لا أثرِ لجبر، كنت تؤمل أن يعينك على المهمة. منذ متى بات زاهي خبيراً في حفر الآبار؟ جر التوصيلات؟ شئون المهندسين؟ الاسمنت؟ الحديد؟ اذهب يا زاهي إلى الشام. أحضرْ مهندساً يقرر أسلوب العمل في الجرن. أحضرْ جبر رزوق لو استطعت. لا أحد يصلح للمهمة سواك. انقطعت أخبار نايف وبشير منذ اشتعلت النار في بيروت. تامر لا يفتأ يجري من ناحية إلى ناحية. أربى ما أودعه في عبّ ساميلا على أربعة آلاف ليرة. عاد نايف وبشير من جولتهما الأولى بألفين. أسبوع في الشام وأسبوعان في حمص، بماذا سيعودان من بيروت؟ بلغت فروق الزيادات ألفين ومائة. رافع لا يحنث بيمينه. لن يبرح مظلة البيت من أجل الجرن. لا أحد يصلح للمهمة سواك. قف أمام فيجة الجامع. تأمل إطار الحنفية، الماء، أين جرن النبوعة؟ أين جرماتي؟ بماذا قفلت من الشام؟ أية حيلة تنفع من أجل الخلوة يا سمية؟ سمية تيسر لك الأمر. تعال يا زاهي واسمع. كان ناهض يتحين سفرك على أحر من الجمر؟ ولماذا يا سمية؟ ألم تتساءل عن حضور ابن الشيخ محب كل يوم عشر مرات إلى الورشة بلا سبب؟ أفصحي يا سمية. في اليوم الأول حضر إلى الورشة، دخل إلى الخيمة، لبث في الداخل طويلاً، نويت أن ألحق به. خرجت أمي مغضبة ومربدة، خرج هو في أثرها مرتبكاً. ولم تنبس أمي بحرف حتى الآن. ماذا تعنين يا سمية؟ في المساء عرج على الورشة. تجاهل أمي التي كانت تقف بيننا. سعى كي يختلي بي. كان رافع وبربهان وأولاد

الشيخ محب قد انصرفوا. قل: تملّصت. في الصباح التالي بكر. كنت قادمة من الجرن، وكان يدخل الخيمة. ابن الكلب، ابن الشيخ محب، لبث يحرس سيده. عجلت، وما كدت أدخل، حتى رأيت أمي تخرج باكية، خرج الأستاذ يلملم نفسه. قلت أمن أجل ذلك خرجت أمي أمس تكاد تنفجر؟ لماذا لم تنطقي حرفاً يا أمي؟

اضربْ الأرض بقدمك. ستؤدب فيه خلق الله. لقد أدبته سمية. هو الذي يتوعد لا أنت. ما دام ناهض في جرماتي فلن يهدأ لها بال. بعد أن حصلتم فروق الزيادات بدأت الجولة الثانية معه. درْ يا زاهي على البيوت، درْ يا تامر، من يجمع التبرعات للجرن؟ من يلمح للزيادات؟ ليس من أجل واحد أو اثنين أو ثلاثة. الزيادات لجرماتي كلها. العرجا عادت تطالب، ديوب نفسه قصد البرزغل مطالباً. ناهض فرّ من شتاء جرماتي. ماذا يدعو للاحتراز بعد؟ التبرعات للجرن والزيادات لجرماتي. البرزغل وحده لا يخيف. تعال يا زاهي، تعال يا تامر، تعال يا ابن بشير، ماذا تصنعون في جرماتي؟ أأنا المختار أم أنتم؟ أأنا الدولة أم أنتم؟ سوف يثور ناهض حين يعلم. سوف يثور الأستاذ قبلان، هذه الأعمال لا ترضي الله ولا عباد الله. نحن نبحث عن راحتك يا مختار. دع الآخرين جانباً، وهات مما في جيبك. هل يجوز أن يتبرع المختار أقل من أقل المتبرعين؟ لا تلفوا ولا تدوروا يا شباب. لم يشبعكم إذن كل ما بلعتموه من زيادات؟ ما شأنكم وجرماتي؟ إذا كنا أكرمنا أو صفحنا فلا تشتطوا. لماذا لا نتعاون جميعاً؟ أنتم تفسدونها. على ماذا نتعاون يا مختار؟ على ماذا نتعاون يا ناهض؟ عدت من غيبتك وأعدت دعوة المختار. انتهت الجولة الثانية، الآن بدأت الثالثة. كم جولة يمتد الصراع بيننا؟ أوقفت التعمير في غيبتك. عطلت المشاريع كلها. شوهت صيفنا الماضي. شوهت خريفنا. عطلت شتاءنا، وعدت لتشوه ربيعنا. فتحت ورشاتك من جديد. رفعت الأعمدة فوق التلة. صارت الطريق المزفتة في التلة. ماذا أفادت جرماتي منك؟ فتحت ورشة في بيت أبي سمية؟ ذلك هو السر إذن! تعال يا زاهي، تعالي يا

سمية، أم سمية، بربهان، أولاد الشيخ محب، تعال يا رافع: ناهض وعد بتعمير البيت. ناهض يفي بوعده. جاء الاسمنت. جاء الحديد. جاء الخشب. امتد السقف الأزرق. اسقوه ماء يا أولاد الشيخ محب. انقلن الماء يا نساء. لن يطول بكن نقل الماء. ولكن ما الذي كنت تضمره يا ناهض؟ ماذا كان يضمر يا أم سمية؟ تعال يا ابن الشيخ محب، تعال أيها الكلب. قل لي.

- ماذا أقول يا زاهي؟ ما بك؟ انتظر قليلاً، ناهض والمختار أرسلاني يريدانك، يريدان تامر ورافع. لا يا زاهي، لا تضربني. ما ذنبي؟

استحث خطواتهم زعيق منبه السيارة. تواصل الزعيق فجروا. قال تامر متضايقاً:

- عروس؟ لِمَ هذا كله؟

توقف زاهي قبل الساحة. السيارة جاثمة قرب باب المسجد. المنبه على أشده. ضوء غامر ينير شطراً من جرماتي. أشباح مسرعة، لغط يتعالى. ماذا سيكون أدهى مما طلع به هذا اليوم؟ لم تعد الميزانية تسمح بمتابعة العمل في عشرين ورشة. منذ متى هذا التوفير يا ناهض؟ تعليمات جديدة؟ تعليمات مشددة؟ انتهت مستودعات السكامنة. سوف ينحصر الشغل في التلة، ثم يكون لكل حادث حديث. والمسجد يا ناهض؟ المدرسة؟ بيت المختار؟ بيت أبي سمية؟ لا شغل لنا في الغد إذن؟ اقترب يا ناهض كي أوشوشك. سمية قالت لي غير هذا الكلام؟ هل يكون سر التعليمات الجديدة عند أم سمية؟ لا تصفرّ يا أستاذ. لا تنتفض. مهما تأخر الصراع بيننا، فهو لابد ناشب. ماذا تخفي عنا يا زاهي ؟ اسأل أم سمية يا تامر. اسألها يارافع. هل سبقتنا إلى الساحة كي تسأل؟ ماذا جاء هؤلاء الأطفال يفعلون هنا؟ من هي تلك التي تنتحب؟ أسرع يا زاهي إليها. دع ناهض الآن، هذا هو فضل، هذه هي الكلاشين، سيارة بيضاء، علم فلسطيني، نعش صغير ، صغير جداً، لطفل هو أم لرجل؟ إنه عمر يا زاهي، أين عمر يا ناس؟ أليس عمر أجيراً في الفرن؟ ما الذي جعله يستشهد؟ الحرب عندنا يا زاهي. أين يا رجل؟ ألست في الجنوب؟

حوادث بيروت الصغيرة تسميها حرباً؟ كان فضل في الجنوب، واليوم صار في بيروت. الحوداث الصغيرة يمكن أن تنقلب حرباً، وأي حرب! ولكن ما شأن عمر في ذلك يا ناس؟ أليس أجيراً في الفرن؟ قال فضل: شأنه شأن كل الناس، كيف نخبر الأستاذ قبلان بشقيقه؟ قال تامر:

– كلامك لا يبل الريق يا فضل.

قال فضل:

– لا أعرف متى التحق عمر برفاقنا في المرفأ. التقيت به ليلة وصولي. كان مسلحاً، وعليه هذه البذلة. كانت ضحكته أعرض من هذه السماء. أخبرني بتركه للفرن. صيحته ترن في أذني: الساعة التي انتظرتها تدقّ. سوف أقلب بيروت على رأس معلمي. معلمي يلملم أغراضه، ولكنه لن يفلت مني. لم أصدق أن في قلب عمر كل هذا الحقد.

قال رافع:

– متى كان ذلك؟

قال فضل:

– قبل وصول نايف ووالدك.

قال رافع ملهوفاً:

– ما أخبار أبي ما أخبا...

قاطعه فضل:

– لم أرهما منذ مدة، ولم أسمع عنهما خبراً. كانا مستبشرين، فما جمعاه يكفي لتوصيل حنفية إلى كل بيت.

هل يكونان قضيا أيضاً؟ اخفِ وساوسك يا زاهي. لتنقضِ هذه الليلة بخير. لا تسأل يا تامر بعد عن الأستاذ قبلان. ألا تسمع وصية عمر. لا يريد أن يدفنوه إلا في جرماتي. وصية الشهيد أمانة. ما علاقة قبلان به؟ نحن أهله. ما همّ إنْ كان شقيقه الوحيد؟ ما همّ إنْ كان شقيقه الأكبر؟ فضل لا يستطيع الانتظار. لا يجوز أن ندع الجثة تنتظر أيضاً. هذه ليلتها

الثانية. وأنت، في كل حرب تزور جرماتي يا فضل. تنهد فضل وناس صوته:

- قد لا أزورها بعد اليوم يا زاهي.
- مثلك يقول هذا الكلام؟
- هذه الحرب غير كل حرب يا أخي.
- ماذا نستطيع أن نفعل من أجلكم يا فضل؟
- في الحرب الآن من جرماتي من يكفي. أليس عمر شهيدكم هناك؟ سلوم يحارب أيضاً.
- ألا نفيدكم في شيء؟

تصلبت قامة فضل، وجاء صوته من أعماق الحرب:

- بلى يا زاهي ، عمروا جرماتي جيداً. هيا إلى الدفن. أخرتموني.

(2)

كتفاك ينوءان بما يتكوم فوقهما. هل تتصدى لناهض الآن؟ هل تتصدى للبرزغل؟ انتظرْ يا زاهي عودة بشير، عودة نايف. انتظروا الأستاذ قبلان، في الحياة أنكر الأستاذ قبلان شقيقه، أما في الموت؟ الانتظار الانتظار. ليس لك غير الانتظار. ما بكم يا أهل جرماتي؟ هل تخافون الأستاذ قبلان؟ هل خفتم على أولادكم في لبنان؟ لا تنحنِ يا صبايا.لو كانت أم عمر حية لزغردت! آخ يا عمر! آخ يا جرماتي!

بيت تامر مقر العزاء. اتجهت جمهرة كبيرة من الناس إليه عقب الدفن. أخذ تامر يروح ويجيء بين الناس. شمس جرماتي تصعد ببطء. شمس حزينة صغيرة، لكنها نقية وساطعة وحنونة. حث ابن الشيخ محب الشغيلة على الإسراع بالدفن. صال المختار وجال على المقبرة. لم يظهر الأستاذ ناهض. تلكأ الشيخ محب. لو كان الشيخ عبد الستار حياً، لهان الاختيار. احتكِرْ يا شيخ محب الدفن وغير الدفن. أنت من جهة

وابنك من جهة. تعطل الشغل في الورش جميعاً. زاهي يجيل ناظريه في الحاضرين فرداً فرداً. من منكم صاحب البلوى ومن المعزي؟ ألسنا في حاجة إلى هذه الحرب التي أخذت عمراً معها؟ سوف يقولون: أودى الحزن بعقلك يا زاهي. قولوا لي بحياة جرماتي إذن: ما خلاصها؟ منذ متى نحتال كي نحصل زيادات الكشوف؟ منذ متى نحتال على جرن النبوعة؟ العين لا تقاوم مخرزاً، أجل. الدولة دولتهم؟ أجل. من ضرب ضرب، ومن هرب هرب. أجل. النعمة تظهر على البزرغل، أجل. إذا لم نجبرهم على الدفع، فلن يدفعوا. لماذا لا تقولون: أجل؟ من لهم في جرماتي يا أهل جرماتي؟ ما يهم إنْ كانوا أضعافاً مضاعفة؟ هذه بلدنا وهذه حياتنا. قاطعوهم يا أهل جرماتي. قاطعوهم قبل أن يفوت الأوان. سوف تنتهي الورش عما قريب. ماذا يتبقى لكم بعدها؟ هل يستوردون شغيلة من السماء؟ هل تدعونهم يفعلون؟ تعالوا ننقل بلوانا إلى الشام. سمّوه إضراباً. سموها شكاوى. ما تهم الأسماء؟ ماذا يهم سواك يا جرماتي؟

(3)

لبس وجه الأستاذ قبلان لبوس الحزن. لا حول ولا قوة إلا بالله. أطرق الرجال صامتين، وتركوا له الكلام. كم وصية أرسلت إلى كل أبنائنا هناك! اتركوا الغربة وعودوا إلى بلدكم. لا حياة لمن تنادي. تعالوا اشتغلوا هنا بربع ما تشتغلون به هناك. أليس ذلك أفضل؟ من نقل إلى الأستاذ نبأ أخيه؟ من جمع كل هؤلاء الرجال في بيت البرزغل؟ ناهض يتنطع:

– يا أستاذ نحن ندفع مثلاً في مشاريعنا ضعف ما يأخذه الشغيل منهم في بيروت، ضعف ما يأخذه أحسنهم حظاً.

قال البرزغل:

- ها قد بدأوا يعودون يا حسرتي.

من عاد منهم يا مختار؟ هل تعني عودة بشير القصاب أمس؟ عمر عاد شهيداً، فهل تعنيه؟ ألم يبق نايف هناك؟ جاء واحد وذهب واحد، قل لهم يا بشير: نايف لن يعود. نايف يقاتل هناك. ماذا رويت عنه؟ ماذا رويت عن سلوم؟ منذ تضاعفت حوادث بيروت أطلّ على نايف ما كان يرجوه نايف ينتظر من يوم قتل الست منيرة. وسلوم؟ هي الحرب، فماذا تظنون؟ هل مات حقاً يا بشير القصاب؟ هل مات يا بيروت؟ قد يكون مخطوفاً، قد يكون جريحاً. لو كان استشهد لجاء بنعشه فضل. أليس لفضل غير نقل النعوش؟ سوف يبقى سلوم بلا قبر. سوف يجد فضل من يدفنه. تدرون كيف يكثر الكلام في الحرب. هل نسيتم كيف كنا البارحة في حرب تشرين؟

قال الأستاذ قبلان:

- يجب أن يسرعوا جميعاً بالعودة. هذا أسلم لأرواحهم وأموالهم. الشام امتلأت باللبنانيين، فكيف بأولادنا؟

قال بشير:

- الناس جميعاً يرحلون عن لبنان: أغنياء، فقراء، سوريين، فلسطينيين، لبنانيين، عرباً، أجانب، لا رحيل جرماتي يوم الاحتلال[1] ولا يوم القنيطرة[2]، والأستاذ يقبل عليك يا بشير، يهش لك، حدثنا عن آخر أخبار المرحوم. ما بك تجفل عند كل سؤال؟ لم ألتق بعمر منذ زمن طويل. لم تكن أخباره لتصلني أثناء القتال.

ماذا أقول يا أستاذ؟ لا أحفظ غير ظلم الفران للمرحوم. أخبارك قديمة يا بشير. لا تنزعجْ الأستاذ. لقد تبدل لونه، الى متى تظل ساكتاً يا زاهي؟ الأستاذ يرفع حاجبيه بأناة، يبحث عنك، يركز عينيه في عينيك، يحرك لسانه في كل الأنحاء، لكن عينيه لا تغادرانك. يشكر

(1) تشرين الأول 1973

(2) حزيران 1967

الرجال على ما كان منهم في دفن المرحوم. أي شر تتوجسه يا زاهي من هذا اللسان؟ أي خازوق ينجر بعد هذه المقدمات جميعاً؟ الأستاذ يتحدث عن جرماتي كأنه لم يغادرها يوماً. إنهم ينقلون لك ما يجري بأمانة. من زف إليك نبأ أخيك؟ من جمع لك كل هؤلاء في بيت المختار؟ لماذا تحمست يا زاهي حين قالوا: الأستاذ يستقبل المعزين في بيت المختار؟ الأستاذ يريد أن يرى رجال جرماتي في بيت المختار. هيا يا أستاذ. لسانك يبدو زلقاً أكثر من كل ما مضى. زاهي برّحه الانتظار. لا مصلحة لأحد إذن في الامتناع عن الشغل؟ سوف تزيدون أجرة الشغيل قليلاً؟ والذين طردهم ناهض بيك؟ القانون هو القانون. لا تجوز زيادة فرنك واحد على الجداول التي وقعت. لماذا لم تراجعوا في الشام قبل التوقيع؟ لو فعلتم لكنت أمنت لكم زيادة في مخصصات جرماتي. كنت وفرت عليكم وعلينا هذا الشقاء. كم جمعتم من أجل الجرن؟ هاتوا المبلغ وستكمل الحكومة الباقي. هل تستطيعون أن تمدوا التوصيلات من الجرن إلى البيوت؟ هذا شغل الحكومة وليس شغلكم. ولت الأيام التي كنتم فيها تعمرون المدرسة أو تشقون الطريق. الآن يوجد من يعمر جرماتي، من يجعلها جنة. بعد انتهاء المشاريع الحالية سترون. سوف يسير العمل أسرع مما كان ألف مرة. لن يقضي أولادكم سنة أخرى في الأزقة. سوف تنتهي المدرسة قريباً، المسجد أيضاً، سوف نجدد بيت الله أروع تجديد. ثم هناك الكثير مما لم يخطر لكم على بال. غداً يعود أولادنا من لبنان، يصبون مالديهم معنا، ونشبك سواعدنا جميعاً من أجل جرماتي. ماذا قلتم يا رجال جرماتي؟ لا أحد يقاطع خطبة الأستاذ العصماء. الهج يا شيخ محب بالدعاء. اثن يا برزغل على الخطيب المفوه، الرأي الراجح، الكلمة القاطعة مثل حد السيف. وأخيراً انتهى الانتظار يا زاهي. الزيادة أولاً وثانياً وثالثاً. القانون لم ينزل من السماء يا أستاذ. مصلحة جرماتي هي القانون. المسألة وما فيها أن بعض الأيادي لعبت لعبتها، والفضيحة فاحت رائحتها. لا تثر يا ناهض، لا تتململ يا برزغل. الأستاذ ينصت، يأمر

بالسكوت ، أما عرضك يا أستاذ بشأن الجرن، فينبغي أن نتشاور فيه قبل الجواب. أبو رافع عاد للتو، ونايف لا يزال هناك، والشهيد شغلنا عن كل كلام. أين ليونة صوتك الأولى يا أستاذ؟

- ليس لدي وقت لأنتظر المشاورات وما أدراك. ثم ما لزوم المشاورات؟ ما معناها؟ ها أنتم جميعاً هنا، تلك مصلحتكم، مصلحة جرماتي، يجب أن تقرروا، وعفا الله عما مضى. أما إذا ركب أحد رأسه..

عاد الأستاذ إلى أصله. أهو تهديد يا أستاذ؟ در في وجوههم وجهاً وجهاً:

- افهمه كما تشاء.

زاهي يفهمه على حقيقته. لا داعي للتهديد ولا للوعيد يا أستاذ. نحن نعرف مصلحتنا، ومصلحة جرماتي. وقال الأستاذ غاضباً:

- ونحن نعرف مصلحة البلاد كلها، أم ماذا تظن؟ سوف تسير جرماتي كما نريد.

رافع يتدخل، يتودد، يصطنع الابتسام، يحرك يديه:

- الأمعاء في المعدة قد تختلف.

البرزغل يتدخل أيضاً:

- لكن خلافاتنا لا تبدو خلافات الأمعاء في المعدة يا ابن أخي. ماالذي يدور في رؤوسكم؟

دع حنجرتك يا زاهي تنطلق ما وسعت:

- نريد أن نعمرها. نحن أبناؤها، نحن أدرى بحالها.

تضاعف هياج الأستاذ:

- بمن تعرض يا زاهي؟ أنكون غرباء عنها؟

رافع يعود بالتودد، يصطنع الابتسام، يحرك يديه:

- لا نريد أكثر من حقنا يا أستاذ: الزيادات، الجرن، غيره، غيره، دائماً يطلع لنا من تحت الأرض من يسحبه من بين أيدينا بخفة السحر!

وقف الأستاذ، فوقف الرجال:

– لو عاملناكم بالمثل، لخربنا بيوتكم أكثر مما هي عليه. أخذتم مال الحكومة لتعمروا، فأنفقتموه.. الله أعلم أين.

صمم زاهي على أن لا ينتظر بعد اليوم، قاطع الأستاذ:

– مال الحكومة من جيوبنا أم من أين؟ بعد قليل تحاسبنا أيضاً على ما جمعناه من الناس. لك دربك ياأستاذ، ولنا درب.

خرج زاهي، لحق به تامر، بشير، وتردد رافع، وخرج كثيرون، فيما الأستاذ يصرخ:

– يا الصعاليك: سوف أرى إن كانت تقوم لكم قائمة في جرماتي، وأنا على قيد الحياة!

صاح زاهي ملء جرماتي:

– سوف نرى. أنت ودولتك، ونحن، من نحن؟

(4)

هل تعود الروح إلى ديوب؟ إنه يحيى القربى وهي رميم. حل في الشام من لبنانية جرماتي وسواها كثيرون. فيهم من كان بين أجداده وأجداد ديوب نسب وأي نسب؟ منذ سنة أم مئتين أم ثلاثة؟ ديوب يحيى القربى وهي رميم، يطلع على جرماتي بثوب جديد: هؤلاء الذين فروا من لبنان وجيوبهم منفوخة، لا يحلون في جرماتي، الحورانة، الخسفات، الدلبة. يقسم ديوب أن واحداً فقط من أولاء لو فعل، لأحيا جرماتي كما لم يحيها أحد من قبل، كما لم تحيها الدولة نفسها. عاد أول مرة محملاً بالنرز، باهى في المرة الثانية امرأته، بات يتردد على الساحة. يبدي ويعيد في سيرة أولاد العم الذين سيحيون الشام. الشام كلها صارت بنت عمك يا ديوب. أنصت يا زاهي ولا تتململ. كيف

يمكن أن تفيد من ديوب الجديد في تخفيف هجمتهم الضارية؟ يبدو انتصارهم مؤكداً، سوف يحتفلون عما قريب بتدشين عمارة السكماني، فيلا الأستاذ، المقصف السياحي، المرحلة الأولى من مشروع تعمير جرماتي. ملف تعمير جرماتي، أين صار ذلك العنوان؟ أين صار ذلك المصنف الكرتوني الأصفر الرخيص؟ أين ضاعت تلك الشهادات والتقرير المفصل؟ زاهي يحمل الملف على ظهره، يتوجه إلى الشام، لا تفتح له أغلب الدوائر أبوابها، تطرده أبواب أخرى إذ تطالع السطور الأولى مما كتب وكتبوا، يتيقن من اليأس ، يستميت متعللاً: قد يخفف ذلك من هجمتهم علينا، قد يشد أزر الناس في مواجهتهم، يعود في المساء منكساً، تستقبله أخبار اللجنة التي حضرت في غيبته. لجنة حكومية للتحقيق في قضية جرن النبوعة. أين ذهبت الأموال التي سلمت للمنتفعين بتعويضات التدمير؟ هل يطابق واقع الإصلاحات المنفذة قيمة المبالغ المسلمة للناس؟ كم سلم كل منتفع من حصته إلى زاهي أو تامر؟ استدعي بشير القصاب على انفراد. سئل عن رحلته إلى لبنان، عن المبالغ التي جمعها في الشام، عن غيبة نايف، أطلقت تهديدات تشيب شعر الرأس. ما الذي ينبغي القيام به الآن؟ ما دامت الروح قد عادت إلى ديوب، فلنلوح به في وجه البرزغل. أتكون هذه جوهرة النبي؟ لكن ديوب لا يريد غير السترة، لا يريد أكثر من أن يعود رجلاً محترماً في جرماتي. البرزغل يرتعد من أية نسمة على المخترة. لعاب ديوب يسيل سريعاً، ألا يمكننا أن نلعب بعقله؟ فخار يكسر بعضه. عدو عدوك صديقك. سوف يقولون: تعاونتم مع الذي وضع يده في يد الاسرائيليين. هل العداوة عميقة إلى هذا الحد بين ديوب والبرزغل؟ والأستاذ قبلان، البرزغل، السكامنة، ديوب، كيف يمكن اللعب بين هؤلاء؟ سوف نجد أنفسنا بعد حين في مواجهة من نؤمل فيهم اليوم بعض النفع، سوف سوف.. لِمَ التعب في حسم ذلك كله الآن؟ ماذا يبقى من أسئلة لرافع إذن؟ المهم، ألن ينفع ذلك في تخفيف هجمتهم، ريثما...؟

(5)

كثرت السيارت الذاهبة والآيية منذ الصباح الباكر. خرج الأولاد يعاينون الأبواب اللامعة، الوجوه الغريبة، الحركة الدائبة على التلة. سعى بعض الشباب والرجال نحو الفيلا. رأوا عدداً من رجال الشرطة في زي خاص، آلات تصوير ضخمة، لمبات كبيرة ملونة. تلصص عدد كبير من العجائز والنساء على ما يجري في عمارة السكماني. انتهت المرحلة الأولى من مشروع تعمير الدولة لجرماتي. تبارى ديوب والبرزغل في بث الأخبار: سوف يقام احتفال كبير، سوف يفتتحون المرحلة الثانية من مشروع التعمير، إصلاح المئذنة، توسيع المسجد، إصلاح المدرسة، ربما يجري الحديث في جرن النبوعة أيضاً. سوف يحضر الأستاذ قبلان، القائد الذي يتبع له ناهض، السكامنة، صحفيون، مصورون، ضباط كبار، موظفون، نساء، خدم، مغنون، راقصات.. ومالت الشمس نحو الغرب، انطلق موكب المحتفلين من العمارة إلى التلة، سرب طويل من السيارات الفارهة، همس ضيف في أذن الأستاذ قبلان حاسداً على نعم الطبيعة، أعلنت ضيفة عن دهشتها من قرب الحدود الاسرائيلية ، أشار الأستاذ قبلان ضاحكاً متباهياً إلى نقطة الألغام بين الفيلا والمقصف، وجوّد:

– أقرب إليك من حبل الوريد!

ضحك الحاضرون، صفر ضابط، تقدم الأستاذ قبلان من الشريط الحريري أمام مدخل الفيلا، قدمت له طفلة جميلة قادمة من الشام مقصاً براقاً، قبلت سيدة أربعينية الطفلة، سمى الأستاذ باسم الله والوطن، قص الشريط، صفق المدعوون، هتف أحد عناصر الشرطة ممجداً حرب التحرير، ارتجل الأستاذ كلمة قصيرة، ذكر جرماتي المناضلة، الغزاة الصهاينة، الأموال التي يدفعها الأمريكان لتعمير ما خربته الحرب، التكفير عن الجرائم التي اقترفوها فيما مضى، الأموال التي يجود بها الأثرياء العرب، ضريبة الجهاد المقدس، حيا أبناء جرماتي

العائدين من لبنان، خص أموالهم التي سوف تساهم مع الدولة في التعمير، هتف شرطي آخر بصوت مجلجل، سخر الأستاذ من الذين يظنون أنهم أقوى من الدولة، هدد المشاغبين الذين يعرقلون التعمير، ترحم على شقيقه عمر، عاتب الأشقاء المتناحرين في لبنان، قاطعه شرطي ثالث بهتاف طويل، لم يرد أحد خلف الشرطي، ختم الأستاذ كلمته بآية قرآنية، ثم تنحي لسيدة مجاورة، فتدفق المدعوون والمدعوات إلى داخل الفيلا، تفقدوا أجنحتها، شرفاتها، مسبحها، ملاعبها، وعسر البلع في حلقوم ناهض، لبث ينتظر حكم الموت أو الحياة. لم تسمع أذناه عبارات الثناء الأولى. اختلط عليه لغوهم بالمهمات الجديدة: سوف يشرع ناهض منذ الغد بتجهيز مدجنة نموذجية في مستودعات العمارة. السكماني قدم المستودعات هدية للأستاذ. سوف يشرع ناهض منذ الصباح بالمرحلة الثانية من مشروع التعمير. واجتمع الضيوف من جديد أمام مدخل الفيلا. تقدم القائد من ناهض. مد كفه مصافحاً، غامت الدنيا أمام ناهض. أسرع المحتفلون إلى المقصف، قصت سيدة شريطاً آخر، غابت شمس جرماتي تماماً، لم تطل الجولة في المقصف، قفل المحتفلون إلى العمارة، عرجوا على مربض الدبابة الاسرائيلية، تريثوا قليلاً أمام بيت غالي، عاينوا بقايا الدمار، محاولات التعمير الأولية التي نفذها غالي وبربهان، وبدت العمارة من بعيد لؤلؤة تتوهج، وكانت الفيلا والمقصف لؤلؤتين أكثر توهجاً على التلة، وراح العتم الفاصل بين وهج اللآلىء يخفي جرماتي.

(6)

ربض رافع في زاوية من سطح بيت أبيه يرصد الموكب الصاعد إلى التلة. عدّ المدعوين واحداً واحداً. لم تقع عينه على فاهية بينهم. هل أنطلق نحو العمارة؟ سوف أتلفت ورائي وحوالي جيداً. هل

تضبطني عين من جرماتي؟ قد يجود الزمان بفرصة: فاهية وحيدة متمددة على السرير. رافع يتقدم شحاذاً. السكماني يجود بما في المستودعات. هل تنكر فاهية رافع عما قليل؟ كيف ستلاقي ابن بشير القصاب وحولها ذلك الحشد من البذلات الأنيقة، النجوم اللامعة، الشعور المصففة، العطور المسكرة؟ لِمَ تغامر يا رافع؟ أهي سبيلك حقاً إلى أبيها؟ أبوها سبيلك إلى الأستاذ قبلان؟ والأستاذ سبيلك إلى حل المعضلات؟ هل أخرجت نايف من السجن بهذا السعي؟ هل تقفل التحقيقات اليوم؟ تحصّل الزيادات؟ تفاجيء جرماتي باختصار الدرب؟ عللْ نفسك بالأماني، برزْ سعيك من أجل فاهية، لا أبوها ولا الأستاذ قبلان، لا نايف ولا التحقيقات ولا الزيادات. سوف يظفر بك زاهي، سوف يجهز عليك. لن ينفعك ما تخبيء من أسراره. سمية ليست سره الوحيد، لكن ذلك لن يقارن بفاهية. سمية تظل سمية وزاهي يظل زاهي، أما رافع، فستكون فاهية قد استلّت منه الروح. فاهية تظل فاهية. أغمض عينيك أغمضْ. سوف تطالعك وجوه غريبة. هل أخطأت المدخل؟ ماذا فعل ناهض بالعمارة؟ لِمَ يلبس أولاء الرجال هذه الصداري البيضاء؟ لِمَ يتعممون بهذه العمامات الملونة؟ لمن كل هذه الموائد الممدودة من الجدار إلى الجدار؟ كراسي مذهبة، ثريات تشع في السقف الزخرف، سجاد يغطي أرض الصالون، هل دخل ابن بشير القصاب إلى هذا المكان من قبل؟ هل عمرته يا ناهض أم أثثته؟ أين الأنس وأين الجن؟ أغمض عينيك يا رافع أغمض. دع فؤادك يخفق على هواه. لا يقلقنك خلو الصالون. لا تتعثر فوق الدرج. سوف ترى السجاد أيضاً، اللوحات المعلقة، الممر الذي يقودك إليها. أين غرفة الست خالدية؟ أين غرفة فاهية؟ لماذا يفعل السكماني هذا كله بالعمارة؟ هل سيعودون إلى جرماتي من جديد؟ أيكون ذلك كله من أجل الاحتفال وحسب؟ سوف تقول لك فاهية كل شيء. لكن هذه الغرفة خالية، وهذه، وهذه، لذلك استدرْ إلى الممر الآخر. لا تدع الحمى تذهب بعقلك، لا تقرع الأبواب. أدر مقبض الغرفة الأولى،

الثانية، الثالثة، فسوف تشب فاهية مرعوبة، ويرتد رافع فزعاً حتى تعود إليه الروح. والآن يتعثر لسانك:

- عفواً فاهية، أفزعتك؟ أردت أن أفاجئك مثل المرة الماضية.

- الماضية.

- نسيت فاهية؟ ألا تقولين: تفضل؟

- تفضل.

تكوّرْ قبالتها في أحد الكرسيين الوثيرين. ابحثْ في الغرفة عن سرير. تمعنْ في السجاد. هل هي من بنات جرماتي حتى تستلقي على الأرض؟

سوف تنهض مجفلة. تتجه إلى الباب وتتنصت. يتعثر لسانك من جديد:

- لماذا أنت وحيدة؟

سوف تنهرك:

- ما الذي جاء بك؟

فتنهض مرتبكاً، وتوشك الفرصة أن تضيع، حتى تمسح بكفك على ذراعيها. لكنها تنفر مبتعدة وتلغو:

- لو قدم أحدهم فـ...

تعض على شفتيها، آخ، تلاحق أنفاسك، تستجمع شجاعتك من أطراف الدنيا، تنطلق:

- هل تخشين؟ العمارة خالية يا فاهية.

ويقترب وقع أقدام، فتهرع إلى كرسيها، وتهمس قلقة:

- بدأوا يعودون. أعوذ بالله. ما الذي جاء بك يا أخي؟ هل تتفضل وتخرج؟

وينقر أحدهم الباب نقرتين مؤدبتين، تحدق بك حاقدة. ينقر الباب من جديد. هل تطردينني؟ اجلسْ قبالتها حتى تنهض صامتة، متحدية:

- من؟

يتسلل صوت وانٍ مفرط التهذيب:
- أتسمحين بالدخول؟
تقف وتنده:
- يا رب؟ ما الذي جاء به؟
سوف تتلجلج شفتاك:
- هذا ناهض. المهندس ناهض.
سوف تلمع عيناها ويذوب صوتها رقة:
- تفضل.
ويظهر ناهض لاهثاً. تلجمه الدهشة، يقف، تكرر فاهية الدعوة، آخ يا بنت السكماني! نقّلْ عينيك بين الكرسيين الوحدين في الغرفة حتى يتنحنح ناهض:
- عفواً يا آنسة، لعلي جئت في وقت غير مناسب.
يتأجج الدم في وجنتي فاهية، تسيل الكلمات على شفتيها الكرزيتين:
- أبداً، تفضل.
تتقدم أنت نحو الباب، لا مناص، ماذا ستقول؟
- عليّ أن أنصرف. أرجو أن أراك في وقت أفضل.
وحين تحاذي ناهض قرب العتبة، تحدق فيه منغماً صوتك:
- أليس المهندس في الاحتفال؟!
سوف يتعتع ناهض:
- انتهى الاحتفال.
ثم يقبل على فاهية، يفرك كفّيه مبتسماً:
- إنهم قادمون. سبقتهم وقلت أسلم عليك.
لن يجدي أن تتنحنح يائساً:
- هل تأمرينني بغير الانصراف؟

هل تلبث قرب الباب وتنتظر شفتيها المطبقتين أبداً؟ أغمض عينيك أغمض. افتح جفنيك ما وسعا. تلك فاهية السكماني، وأنت؟ من أنت؟ اربض على هذه الزاوية من سطح بيت أبيك. ارصدْ الموكب الصاعد إلى التلة. عدّ المدعوين واحداً واحداً، لماذا لم تظهر فاهية بينهم؟ تراها تنتظرك في العمارة؟ هل ستنطلق نحو..؟

(7)

نادى ناهض على جرماتي: بكرة تأتي الشرطة وتجمع ما لديكم من دجاج. لماذا يا ناهض؟ أوامر الطبيب يا بهايم. هذا ما جاءنا منك ومن أستاذك وحكومتك يا ناهض. لا علاقة لنا بما تهرفون. بعد أيام قليلة أو كثيرة يكتسح الموت دجاج جرماتي، حيواناتها، يتلوث الهواء الذي تتنفسه المدجنة. سوف يخسر الأستاذ قبلان. سوف تخسر يا ناهض، اكرع من هذه الكأس، ومن هذه، ومن هذه. سوف تحيل المستودعات إلى مدجنة نموذجية في ستة أيام، وفي اليوم السابع يأتي الأستاذ، يأتي السكماني، يكون احتفال جديد. ماذا سيهدي السكماني للأستاذ في المرة القادمة؟ سوف يرسل الأستاذ قبلان ثلاثة رجال متخصصين من الشام. يفرد لهم جناحاً في العمارة. الرجال يديرون المدجنة. العجائز يحمدن الله على العمر الطويل: طلع عليهن الزمان بكل العجائب، دجاجات تبيض بلا مناكحة الديوك، صيصان تفرخ بدون دجاجات، فوانيس كاز، موازين حرارية، طعام محضر خصيصاً، لا حفنة شعير، لا بقايا الطعام، لا فضلات الأطفال، لا روث الأبقار، وسوف يحضر ناهض الطعام بنفسه من الشام. سوف ينتهز الفرصة كي يكحل العين بطلعة فاهية. آه يا قاتلة! صار ناهض أيضاً خبيراً في الدجاج. سوف يجعلني الأستاذ خبيراً في كل شيء. اكرعْ من هذه الكأس، ومن هذه. سوف يعبأ البيض في أطباق خاصة من الكرتون

الأبيض المزخرف الجميل. كل بيضة لها مستقرها. الأطباق تصف فوق بعضها بلا نهاية. أين موقعك من ذلك كله يا ناهض؟ الصيصان تنام في ساعه، تنهض في ساعة، حتى تعج خلفية العمارة بالصيصان. سوف يغضب السكامنة حين يزورون جرماتي. الأرض مفروشة بالرماد. الرماد ممزوج بالكبريت. ليس في الأرض براغيث مثل أقنانك يا جرماتي، الصيصان ناعمة، صفراء، بيضاء، مثل أولاد المدن، لن تظل المدجنة في المستودعات، سوف يعمر ناهض مدجنة كبيرة بعيد الجرن. ثمة قطعة أرض فسيحة، مسورة بكرم قديم للسكماني. سوف تستحيل المرحلة الثانية من تعمير الدولة لجرماتي إلى إنشاء مداجن، لا المدرسة، لا المسجد، لا بيوتكم يا بهايم جرماتي. لا شيء يهم. انتهت المرحلة الأولى بسلام. الطريق والعمارة والفيلا والمقصف. ماذا تريدين أيضاً يا جرماتي؟ أما كفاك المال الذي أخذته؟ دعيهم يعمروا مدرستك، مسجدك، بيوتك، ناهض مشغول بما هو أهم: المرحلة الثانية من مشروع التعمير. سوف يغدو ناهض ديك الدجاج الأول في سورية. سوف يطلع كل يوم بخبر جديد. سوف ينشط ديوب هذه المرة أكثر. أخبار جرماتي الطازجة باتت رهينة ديوب. عين البرزغل باتت تحمرّ منك يا رجل الأزقة والساحة والسهرات ودكان بيزو: باتوا يتحدثون عن مخترة ديوب. المدجنة سوف تتحدث أيضاً، ديوب سوف يغدو حبيب الأستاذ، والأستاذ يتخلى عن البرزغل، والبرزغل يهزل، يقع مريضاً، فيحضر الطبيب إلى جرماتي. يسرّ ديوب أنه قادم من أجل صحة الصيصان والدجاجات البيّاضات. يعلو الضحك الأبله في جرماتي، يسود العجب. من أجل أجداد الأجداد لم يكن يحضر طبيب إلى جرماتي. من أجل البرزغل لا يحضر، لكن من أجل دجاجة؟ من أجل صوص؟ سوف يعد ديوب طعاماً فاخراً، سوف يدعوك يا ناهض، سوف تكرع أكثر مما تفعل الليلة، سوف يقضي الطبيب أغلب نهاره في المدجنة. سوف تفح البرزغلة في أذنيك: صار ديوب يستقبل الزوار. فحّي في أذن زوجك ياعاهرة سوف يخرج

الطبيب في جولة على الأقنان، يفحص الدجاجة بيديه وعدته، يتجمع الأطفال، يلكزون بعضهم بعضاً: جرماتي مصابة بدفتريا الطيور، كوليرا الدجاج، أمراض الدنيا والآخرة. رشوا بيوتكم بمحلول الفينيك. اقتلوا دجاجاتكم. احرقوا عظامها. أطعموها القمح والذرة، الفول والنخالة، البرسيم والملفوف، العدس والذرة، ملّحوا طعامها. هاتوا عظام موتاكم من مقبرة الشيخ ابراهيم. امزجوا مسحوق العظام بالطعام. اسكبوا على يد الطبيب الكولونيا. قدموا المحارم. سوف يعلن ديوب: أجرة الطبيب في اليوم الواحد مئة ليرة سورية. الطبيب يجعل الدجاجة تعيش كما يشاء. الشرطة تجمع دجاج جرماتي. سوف تلعن العرجا الطبيب والشرطة والأستاذ والدنيا كلها. سوف تخبىء بربهان الديك الذي تربيه من أجل إجازة غالي المقبلة. وتزحف أم نايف على يديها نحو القن. يربط بيزو دجاجاته وديكهن بخيطان القنب إلى سريره الحديدي أو على سطح الدكان. يصيح قائد الدورية: كل من يربي طيراً عليه أن يحصل على موافقة الطبيب. يذبح بشير كل ما لديه من دجاج وحمام ويقول لأولاده: كلوا. سوف تقول امرأة: لماذا لا يعطينا الأستاذ من دجاجاته وصيصانه حتى نربي؟ سوف ينهرها زوجها:

- هل تستطيعين أن توظفي ثلاثة رجال من أجلها؟

سوف أهمس لهما:

- هل تستطيعان توظيف مهندس أيضاً؟

وحينئذ يقول رجل آخر: لعن الله هذه الأيام. وتبصق عجوز وتسأل ديكها: هل رأيتم بعد الانسحاب يوماً ضاحكاً؟ يقول شاب: لعن الله الاحتلال، يقول آخر: لعن الله أيامنا جميعاً. يبصقون ويجدفون. آه. إني أختنق. كيف ينقلب العرق بصاقاً في هذا الحلق؟ سوف يعوض الأستاذ على كل من خسر دجاجة بليرتين يا بهايم. أصوات الرجال والنساء تعلو: ماذا نفعل بليرتي أستاذك؟ دعها لك وله. آه إني أختنق. ما ذنبي يا مجانين؟ ما ذنب أستاذي؟ أنتم لن تعرفوا ما يضركم ولا ما ينفعكم إلى أن تأتي إلى جرماتي في المساء سيارات

كثيرة، تتجه جميعاً إلى التلة، تتلألأ التلة بالأنوار الكهربائية، يهب النسيم الليلي على جرماتي غريباً، تمازجه روائح لاذعة وجديدة. تتناهى إلى الأسماع أصوات ناشزة. لا أحد يدعوك يا ناهض. لا يذكرونك إلا وقت الحاجة. لا بأس عليكم يا سادتي. سوف ألحق بكم أنّى سارت الدروب. هيا إلى التلة يا ناهض. إياك ونقطة الألغام. إياك وقبر أبي سمية. الدنيا مظلمة. إياك وظلام جرماتي. إياك... آه! هذا عرق أم بصاق يا أولاد الكلب؟

(8)

لماذا تبتعدين عني يا سمية هذه الأيام؟ الدنيا تقوم ولا تقعد بزاهي لو غابت الشمس مرة دون لقياك، صباحاً أو مساء، ظهراً أو عشاء، ساعة أو لحظة، على درب الجرن، في الساحة، على سطح البيت، في كل مكان من جرماتي، فمن لي في الدنيا سواك وسواها؟ لقد نصبوا على مشارفها قضبان الحديد، سوروها بالإعلانات، ألوان وخطوط ورسوم يا سمية: جرماتي المحررة ترحب بكم. من هنا مر الأعداء. من هنا تتفضلون لتقضوا ليلة حالمة. مشروع تعمير الأرض المحررة، المرحلة الأولى. أشهى المأكولات وأشهى المشروبات. في برنامجنا اليومي وصلة رائعة من الرقص الشرقي. هل رأيت أولاد بشير القصاب يقلدون على الجدران: الراقصة المحررة. مشروع التعمير في ضيافتكم. ماذا تريدين من زاهي أن يفعل؟ تعالي أسمعك رسالة نايف: به أعظم مما بي من القلق عليها. نايف قلق على والدته، مشروع الجرن، بشير القصاب، لابد أن بشير وصل بخير. قولي له: وصل. هل تابع ناهض سيرته المشرفة؟ قولي له: نعم يا نايف. ألا يزال البرزغل راكباً رأسه؟ قولي له: البرزغل يموت وديوب يسن أسنانه. لوحنا له بقطعة اللحم، فلم نعد نستطيع إسكاته. ماذا عمرت أم نايف من جرماتي؟ قولي له: الأستاذ قبلان أدرى. ماذا عمرتم منها؟ قولي له: بيتنا لم ينته بعد. وهو يقول لك:

قبل أن أطأ بيروت أول مرة كنت أحلم. قبل أن أقتل الست منيرة كنت أحلم. آه يا سمية! فضل آخر حضر إلى الحورانة، وجاء بالرسالة. نقل شهيداً مع اثنين من المبتورين. آه يا سمية! تعالي أسمعك رسالة نايف: نحن في لبنان ننظف الأرض، جرماتي وسخة، من يعمر فوق الوسخ؟ أنا لم أزعل على ما دمّر الاسرائيليون منها. لم أجرؤ على أن أقول ذلك وأنا بينكم، فليدمروا. ماذا تنتظرون منهم إذن؟ أما بالنسبة لكم، فالدمار هو الخطوة الأولى نحو العمار. لكن لا تتركوا القبالنة ولا السكامنة يعمرونها على هواهم. قولي له: كيف نتركهم يفعلون؟ تعالي يا سمية تعالي. الدنيا تقوم ولا تقعد بزاهي لو غابت الشمس دون لقياك. لماذا تبتعدين عني يا سمية هذه الأيام؟

(9)

لم يعد ناهض يقضي ليله في بيت البرزغل، بات يتيقن من غفلة المختار المبكرة، يغادر غرفته إلى سرير البرزغلة في القسم القديم من البيت، يضاجعها عجلاً، سواء كانت به رغبة أم لا، ثم يتأنق، يتوجه وحيداً إلى المقصف، إذ لم يعد القسم الثاني من مشروع التعمير ملحاً. هدأت قلاقل جرماتي قليلاً. لا يدخل المقصف منها سواه. لكن أسرار المقصف مفضوحة في جرماتي: الأستاذ قبلان يخطب فاهية، يقضيان سهرة كل أسبوع في المقصف، ضباط كثيرون أيضاً، بذلات رسمية وغير رسمية، صناديق كثيرة من شتى أنواع المشروبات، سيارة خاصة للمقصف، صناديق عديدة مكدسة بالدجاج، والطباخون يلبسون ثياباً بيضاء نظيفة، مثل ثياب الوليد في مهده، طاولات القمار محشورة في زاوية الطابق الأخير، والرجال يراقصون النساء. امرأة شبه عارية ترقص كل يوم، رجال عديدون يلبسون ثياباً سوداء، تنقلهم السيارات الفارهة من كل مكان إلى جرماتي، يلعبون بالآلات الصغيرة والكبيرة الموضوعة في صدر الصالة الوسطى، ولم يعد المصلون يستيقظون على صوت

الشيخ محب. صارت منبهات السيارات السكرى تناديهم فيخرجون حائرين في الوقت. السيارات تتحرش بالمصلين. الأصوات تندفع من السيارات داعية إلى الأحضان، تشتم وتقهقه وتجدف . أخذت السيارات تبكر في المجيء إلى جرماتي، تتمهل في سيرها قبيل جرن النبوعة، يقف بعضها قرب الجرن، يطلب شربة ماء، يسلم على الصبايا، يعابث بالماء واللسان. صارت السيارات تزاحم شباب جرماتي في مشوارهم المسائي، قبل أو بعدما يطلع ضوء القمر، والصبايا ينقلن الماء مثلما تعودت جرماتي، يوفرن جهد النهار، يثرثرن، يضحكن، يقفن مع الشباب تحت سنديانات الشيخ ابراهيم، وسيارات المقصف تجعل من الليالي المقمرة هماً جديداً: همت سيارة بحمل شقيقة بربهان عنوة. لوحت سيارة لبربهان بورقة، قد تكون أم الخمسين أو أم المئة أو أم الخمسمائة. ناداها صوت من داخل السيارة: ألا تأتين معنا ربع ساعة وتأخذين هذه كلها؟ وجاءت أخيراً تنشج، تجهد في ستر علائم الضرب والشد على رقبتها: تحرشوا بي يا زاهي.

(10)

هل يأخذونها مني؟ هل يعتدون عليها ثم يرمونها في وجهي؟ لم أر دمعة أم سمية منذ طردها المحتلون إلا الساعة. لست أدري لماذا جعلني اعتداؤهم أفكر هكذا: إلى متى يسرحون ويمرحون؟ لماذا لا نتزوج يا سمية؟ كيف أقول لك يا زاهي؟ لم أفكر في هذا من قبل، لم تكلمني. ماذا كانت حاجتنا للكلام يا سمية؟ ألم تكوني تدركين كل نفس من أنفاسي؟ ألم أكن أدرك كل خلجة من خلجاتك؟ ولكني بتّ أخشى أن تظلي بعيدة عني قيد شعرة. عادت ليالي جرماتي تذكر بالاحتلال. ينبغي أن نكون معاً، سوف أقول لأمك، سوف أصطحب تامر، أو بشير، أو من تظنين؟ تعالي يا جرماتي، اطلبي لي يد سمية من أمها.

دخل زاهي بيت تامر يلهث. وقف تامر وساميلا يحييانه. أين أبوك يا رافع؟ ما بك يا زاهي؟ أين هو؟ لابد أن يبقى في كل بيت رجل، كيف تركت ذلك البيت إذن؟ ما شاء الله يا زاهي! أنت تحمي ذلك البيت؟ أم سمية بعشرة رجال، عينا ساميلا تبرقان. آه يا قارئة الخبايا. هل قرأت خبيئتي؟ يسّري لي الأمر إذن. كيف أبدأ أمام تامر ورافع؟ اليوم قبل الغد، وآه. لماذا لم يكن أمس قبل اليوم؟ وعاد تامر إلى سيرة جرن النبوعة، وساميلا تستحث: أسرعوا قبل أن تأخذ سيارات المقصف نسائكم. أسرعوا قبل أن يصبح الجرن لعنة جرماتي. ساميلا توجه اللكمة إلى تامر عبر رافع الذي يفصل بينهما. رافع يقول: ناهض سوف يبدأ بتعمير فرن كبير. تامر يقول: هذه آخر تخريفات ديوب. قالت ساميلا: اللهم تستر. هل من مصيبة جديدة؟ قال تامر: كلما عمر ناهض للأستاذ حجراً في جرماتي، حلّت عليها لعنة أكبر. قال رافع: سألت ديوب: هل سيقطع الفرن عنا الخبز، والطحين؟ قال: المقصف يحتاج إلى الفرن قبل المدجنة. قال زاهي: المدجنة؟ هل تعرفون؟ عمي بيزو صار يبيع البيضة بسبعة فرنكات، ولكن افسحوا لي بالله. دعوني الآن من هذا القيل والقال. قوموا إلى أم سمية. لا يقولن أحد: ليس هذا وقت الزواج. ألن تزغردي لي يا ساميلا؟ اسمع يا تامر. اسمعي يا ساميلا، اسمع يا رافع، اسمعي يا جرماتي...

(11)

لقد انتصف الليل. ليس ما تبقى أصعب ولا أطول مما مضى. آه من الانتظار! عما قليل يطلع نهار جديد، لم تنهض جرماتي على نهار مثله منذ الاحتلال: زاهي وسمية عروسان. كيف يغمض لك جفن يا زاهي؟ أين الحقيقة وأين الخيال؟ سوف تلتمع عيون الصبايا والشباب

راجية وغابطة. سوف تلهج الألسن بالدعاء. آه! هل أعددنا يا سمية لنهارنا عدته؟ لكأن بيت البرزغل يعج بالشرطة، الساحة، المدرسة، الشارع، التلة، الجرن، ومدنيون أيضاً أرى، مسدساتهم تتراقص على أجنابهم. سوف أصيح بهم يا سمية: ماذا جرى؟ ألن تتركوا لنا هذاالنهار؟ سوف يُستدعى الرجال: أين سهرتم يا رجال جرماتي؟ من شاهد السيارة المارسيدس السوداء ذات الرقم مئة وألف وخمسمائة وكذا؟ سوف يغدو للسيارة عشرون رقماً. سوف تغدو سيارتين: واحدة سوداء، وواحدة رمادية، واحدة مرسيدس اس، وواحدة مرسيدس بدون اس، واحدة بنمرة وواحدة بلا نمرة، وضابط كبير أو أكبر مع صديق أو صديقتين في المستشفى. أستاذ كبير مثل الأستاذ قبلان مع رفيق له، ينزفان في السيارة، على مطل جرماتي، بعيد أعمدة الحديد، بعيد الاعلانات. لكن جرماتي تنام قبل أذان العشاء. سوف يصيح المحققون؟ كذابون. من كان يصطاد العساكر الاسرائيليين أذان الفجر؟ سوف تقولين لهم: تلك أيام يا سادة وهذه أيام. لماذا لا تكون السيارتان متصادمتين مثلاً؟ السيارات تنزل دوماً مخمورة ومجنونة. فلعلها.. سوف يصيح المحققون: كذابون. سوف أصيح: ....، أولاء كانوا يجمعوننا في الليل والنهار، وأولاء يجمعوننا في النهار والليل. آه! ألن يتركوا لنا يوم عرسنا؟ سوف نحمل أوزارها جميعاً. زاهي سيحمل من أجل هذا النهار الجبال والرواسي. آه! لو أن الغائبين يعودون. نايف يشهد العرس، سلوم، فضل، طمئنوني: هل اقتربتم من دحر الفاشيست الجدد في بيروت؟ آه! لو أن الغائبين يعودون، تعال يا غالي: أين أنت في هذه الأيام؟ في أي اتجاه فوهة بندقيتك مصوبة؟ تعال يا جبر رزوق أيضاً. سوف يبادرونك جميعاً: تركتنا نلوب على مهندس. ألا تفهم بأمر الجرن؟ كلما سألنا أحداً يزورّ عنا: هذا ليس اختصاصي. اختصاص مَنْ إسقاء جرماتي بالله عليك؟ سوف يقول جبر: اختصاصكم أنتم. سوف يشمت بي تامر: اسمعْ جواب هذا الذي كنا ننتظره على أحرّ

من الجمر. سوف أقول: اليوم خمر وغداً أمر، هو اختصاصنا، نعم،
لقد أوشك الليل أن يولّي، وليس ما تبقى أصعب ولا أطول مما مضى،
وعما قليل يطلع نهار جديد، لم تنهض جرماتي على مثله من قبل.

للكاتب

روايات

- ينداح الطوفان ـ الطبعة الأولى 1970 ـ الطبعة الثالثة 1994
- السجن ـ الطبعة الأولى ـ الطبعة الرابعة 1986
- ثلج الصيف ـ الطبعة الأولى 1973 ـ الطبعة الرابعة 1993

إضافة إلى طبعة صدرت في تونس عام 1988 وذكر فيها خطأً أنها أولى.

- جرماتي أو ملف البلاد التي سوف تعيش بعد الحرب ـ الطبعة الأولى 1977
- المسلة ـ الطبعة الأولى 1980 ـ الطبعة الثانية 1989
- هزائم مبكرة ـ الطبعة الأولى 1985 ـ الطبعة الثانية 1988 ـ الطبعة الثالثة 1994
- قيس يبكي ـ الطبعة الأولى 1988 ـ الطبعة الثانية 1994
- مدارات الشرق ـ الجزء الأول: الأشرعة ـ الطبعة الأولى 1990

ـ الجزء الثاني: بنات نعش ـ الطبعة الأولى 1990

ـ الجزء الثالث: التيجان ـ الطبعة الأولى 1993

ـ الجزء الرابع: الشقائق ـ الطبعة الأولى 1993

دراسات

- الأدب والأيديولوجية في سورية (بالاشتراك مع بو علي ياسين)

الطبعة الأولى 1974 ـ الطبعة الثانية 1985

- أيديولوجية السلطة ـ الطبعة الثانية 1988

صدرت منه الطبعة الأولى 1978 بعنوان: النسوية في الكتاب المدرسي السوري.

- معارك ثقافية في سورية ـ بالاشتراك مع بوعلي ياسين ومحمد كامل الخطيب ـ الطبعة الأولى 1980
- النقد الأدبي في سورية ـ الطبعة الأولى 1980
- مساهمة في نقد النقد الأدبي ـ الطبعة الأولى 1982
- الرواية السورية ـ الطبعة الأولى 1982
- فتنة السرد والنقد ـ الطبعة الأولى 1994

هذه الرواية

بعيد ظهور (جرماتي) أول مرة كتب سامي عطفة: «كما فينوس تنهض من اليم لحظة الميلاد: مغسولة، نقية، ملفوفة بالسحر والندى والأحلام، كذلك جرماتي ـ الوطن المحرر من الاحتلال ... ويتميز اسلوب نبيل سليمان في هذه الرواية بالاقتصاد الفني، وكل الأدوات الفنية مستخدمة هنا بكفاءة عالية»

(البعث 1978/12/27)

وكتب عبد الرزاق عيد: «بهذه الرواية يحقق نبيل سليمان قفزة نوعية في مسار تطور فنه الروائي» (تشرين 1977/11/25)، ثم كتب: «... وحاولت أن تخترق جدار المألوف لتشكل الخطاب الروائي الوحيد المتمرد على اللغة المركزية الجاذبة الموحدة للأصوات والأهداف والشعارات، الكابحة للتساؤلات، رافضاً مشروعية هرمية السلطة، وهرمية اللغة والعقل والتقاليد».

(قضايا وشهادات، العدد 6 لعام 1992)

أما محي الدين اللاذقاني فكتب: «جرماتي فضاء بلا حدود... بحجم التاريخ، وأكبر من الجغرافيا. قد تكون قريتي أو قريتك أو قرية أي واحد لم تقع عيناك عليه، من مصر أو سوريا أو لبنان أو الأردن، فكلنا في الهم شرق»

(العرب 1986/5/23)

وفي مجلة أفكار الأردنية كتب سمر روحي الفيصل: «ان رواية جرماتي عمل فني ذو جمال داخلي وخارجي، فيه من الإقناع بقدر ما فيه من المتعة، وفيه من التحريض أكثر...»

والسؤال بعد هذا هل صارت (جرماتي) بعد عشرين عاماً غزة وأريحا؟ ما هو الملف الآن للبلاد التي سوف تعيش بعد الحرب؟ أية اجابات ترسم هذه الرواية، أية أسئلة تطلق في أمداء الفن وفي حمولة التاريخ وبصيرته؟

تصميم الغلاف : محمد فهمي
لوحة الغلاف : عبد اللطيف صمودي



دار الحوار للنشر والتوزيع
سورية ـ اللاذقية ـ ص.ب 1018 ـ هاتف 422339 ـ 412935